الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٧٦٩

العدد ٢٨٥ — الثلاثاء ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣ — ١٣ من يونيه سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العدد

رجال العلم ورسالتهم في المجتمع

للدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رجال العلم المقصودون في هذا المقال ، هم أولئك العلماء الذين وقفوا حياتهم للبحث ، ولدراسة خواص المادة التي تتكون منها الأشياء المحيطة بنا في هذا العالم ، والقواعد والقوانين التي ينبني عليها سلوك هذه الأشياء في مختلف الظروف تبعاً لتلك الخواص التي يكشف عنها العلم .

ويتطلب ذلك بطبيعة الحال تَفَحُّص دقائق مختلف المواد ، وتعرُّف تركيبها ، وطبيعة تكوينها ، وبذل الجهد في الوصول إلى الأسباب الحقيقية التي يرجع إليها اختلاف المواد بعضها عن بعض .

وكم من فروض وضعوها في سبيل ذلك ، وأيدتها المشاهدات واحدة بعد أخرى ، حتى بلغت تلك الفروض مرحلة النظريات ، وظن العالم العلمي أنها تمثل الكلمة الأخيرة ؛ ولكن لم تلبث مشاهدات العلماء اللاحقين في عصور تالية أن تعارضت معها ، وحتَّمت على العلماء أن يُعدِّلوها أو يبحثوا عن فروض جديدة لتكون أكثر ملاءمة للانطباق على الواقع ، بحيث تتفق مع جميع المشاهدات القديمة والجديدة . وحين وفق بعض الباحثين إلى فروض جديدة تحقق تلك الأغراض هلَّل لها العلماء وأيدوها ، وكلما زادت المشاهدات التي تتفق معها زاد إيمان رجال العلم بها ، حتى وصلت هي الأخرى إلى مرحلة النظريات ، وساد الاعتقاد بأنها الكلمة الفاصلة ؛ وظلت كذلك حيناً من الدهر حتى اصطدمت بمشاهدات أدق من سابقاتها ، وعندئذ تحتم العدول عنها ، واقتضى الأمر تغييرها ، وهكذا دواليك .

وليس القصد من مقالنا هذا تتبع بعض تلك النظريات، وبيان الظروف التى نشأت فيها ، والمشاهدات التى أدت إلى نقضها ، والجهود التى بذلت لصوغ نظريات أخرى تحل محلها ، فذلك ما قد نتناوله فى فرصة أخرى ؛ وإنما قصدنا الآن إلى ناحية أخرى أكثر اتصالا بالحياة العملية والمجتمع ، وهى ناحية التطبيق .

فهناك طائفة أخرى من العلماء جعلوا مهمتهم استغلال كل كشف علمى جديد لمصلحة الإنسان وراحته ورفاهيته وسعادته ومتعته فى الحياة . فكلما وصل العلماء السابقون إلى اكتشاف خاصة جديدة من خواص المادة ، أو صورة جديدة من صور الطاقة ، أخذ هذا الفريق الثانى من العلماء فى بذل الجهد وإعمال الفكر لابتكار وسيلة عملية لاستغلال الكشف الحديث فى تطبيق عملى جديد يسخر لخدمة الإنسان ، فيقدمونه له هدية ينعم بها ، وهو بدوره يبذل لهم المال فى نظير ذلك من [illegible] هؤلاء العلماء التطبيقيون يهذبون من مخترعاتهم ويحسنونها ويبسطون من أجزائها ومن طرق استعمالها حتى يصير صنعها سهلا ، واستخدامها ميسورا للجميع ببساطته .

بهذه الوسائل العلمية نشأت ونمت وارتقت وتهذبت ملابس الإنسان وأطعمته ؛ وأجهزة الإنارة والتسخين والطهى ؛ وآلات الحرث والرى ؛ ووسائل النقل وأجهزة التليفون والإذاعة ، وماكينات الطباعة ، والآلات ذات الاحتراق الداخلى ، والطائرات ، وآلات الجراحة ، والأمصال ، وغير ذلك مما لا حصر له من جميع ما ينعم الإنسان به من وسائل الراحة والترف والتسلية والاستقلال ، واتقاء أسباب المرض ، والتغلب على المشاق ، والتمتع بطيبات الحياة وبالآثار الجمة للمدنية العلمية الحديثة .

وهناك فريق ثالث من العلماء تخصصوا فى نوع آخر من البحث ، وهو البحث الصناعى التكنولوجى ؛ فقد تبين للعالم العلمى ولرجال الصناعة على حد سواء ، أن التقدم الحقيق سواء أكان من ناحية تحسين المخترعات وإتقانها ، أم من ناحية تقليل نفقات صنعها ، يحتاج إلى أمرين : أولهما تخصيص جماعة كبيرة من الباحثين لفحص كل مرحلة من مراحل الصناعة ، بغية ابتكار التحسينات المتواصلة فى كل جزء من أجزائها ؛ وثانيهما تنظيم الإنتاج على نطاق واسع ، فصنع كل جزء من أجزاء السيارة مثلا يحتاج إلى آلات دقيقة وعمال فنيين يكلفون المصانع مبالغ طائلة ؛ فإذا كانت الآلة والعمال القائمون عليها تنتج فى اليوم ألف قطعة مثلا ، فإن تكاليف القطعة الواحدة تكاد تنزل إلى نصف تكاليفها حين يكون الإنتاج اليومى ألفا فقط . ومن ثم جاءت فائدة الإنتاج على نطاق واسع ، مع التخصص الذى يحصر الجهود ويركزها فى ناحية واحدة .

والفريق الثالث من الباحثين يشتغل عادة لحساب المصانع ؛ ويحيط كل منها أعماله بالكتمان الشديد نظرا للمنافسة التجارية بين مختلف دور الصناعة فى المملكة الواحدة وفى الممالك المختلفة .

***

هذه الطوائف الثلاث من رجال العلم كانت إلى عهد قريب قانعة بالانزواء فى معاملها ، والانصراف إلى عملها فى هدوء وسكينة ، غير عابئة بما يجرى حولها من تصرفات ، وبما يزخر به المجتمع من تقلبات ، وبما يسفر عنه إنتاجها العلمى من تغييرات ، بل ومن ثورات اجتماعية . وكان شعارهم الذى توارثوه ، صغير عن كبير ، هو أن العلوم نشأت على الحياد ، ويجب أن تبقى ملتزمة هذا الحياد إذا أريد اطراد التقدم العلمى ، وأن الباحث إن هو إلا آلة ينتفع بها الجميع دون أن تكون له أدنى إرادة خارجة عن نطاق عمله العلمى فى البحث والتجريب والإنتاج .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكن عاصفة الحرب الكبرى الماضية التي اجتاحت العالم ١٩١٤ ، لما هدأت في سنة ١٩١٨ فتحت أعين الناس إلى قيم الأشياء في ذاتها وإلى قيمها النسبية ، كما جعلت كل طائفة تنظر إلى مركزها في المجتمع ، وإلى ما لها من حقوق وما عليها من واجبات ، وتتطلع إلى تحسين حالها وإلى اكتساب حقوق تتناسب مع ما تضطلع به من واجبات . فأخذ العمال يعيدون النظر في شئونهم ، والزعماء وقادة الفكر يبحثون حالة المجتمع والنظم السائدة فيه ، وبالجملة لم تشذ طائفة من الطوائف عن التفكير في حالها ونظامها ومستقبلها .

وكان الرأي الذي تلاقت عنده كل تلك الطوائف على اختلاف أنواعها هو عدم الرضا بالحالة على ما هي عليه ، والإجماع على سوئها ، والإصرار على عدم العودة إلى نظام الرأسمالية العتيق ، وعلى ضرورة إقامة نظم اجتماعية جديدة على أسس جديدة ، تكون أقرب إلى تحقيق المثل العليا للإنسانية كما تصورها كل فريق على حدة .

ولعل رجال العلم كانوا أكثر الناس تنبها وأشدهم عنفا في استشعار الحاجة الملحة لتغيير وجهة نظرهم في الحياة الاجتماعية بوجه عام . فقد أخذوا يتساءلون فيما بينهم : هل نحن محقون في الفكرة التي سادت بيننا من قديم الزمان ، والتي أساسها أن العلوم يجب أن تظل على الحياد دائما ، وأن هذا هو الضمان الوحيد لتقدم العلم والصناعة وارتقائهما ؟

ثم نظر هؤلاء إلى العالم وإلى المجتمع نظرة فاحصة ، فإذا هم يلمحون أثر العلوم وأثر النظرة العلمية وأثر التقدم العلمي في جميع نواحي الحياة ، فلم يقتصر هذا الأثر على الناحية المادية فحسب ، بل تعداها إلى النواحي الفنية والإنسانية والروحية وتخللها جميعا . فإذا التفتوا إلى الإنتاج الأدبي والفني الحديث في مختلف صوره وجدوه قد تأثر تأثراً ظاهراً بالاتجاه العلمي ، وإذا تلفتوا إلى الناحية العمرانية تجلى لهم الأثر العلمي واضحاً قويا نفاذا .

وإذا ما حولوا بصرهم والتفاتهم إلى الجانب الإنساني في الحياة وجدوه كذلك قد تأثر تأثراً بالغا بالتقدم العلمي . ولكن الأثر في هذه الحالة متناقض ، فبينما نجد الجهود العلمية قد اتجهت من ناحية إلى الأخذ بيد الإنسان وتجنيبه ويلات المرض ، وإلى تقديم مقومات البهجة والسعادة إليه ، إذا بنا نجدها من ناحية أخرى قد اتجهت نحو التدمير والتخريب والتقتيل والتمثيل بالإنسان على أسوأ الطرق وبأبشع الأساليب .

فالمخترعات التي فرح بها رجال العلم وقدموها للإنسان بشيراً بما يسعده ويكمله ، ويرفع مستواه ، قد استغلت في كثير من الحالات لإنزال العذاب وجلب البؤس والشقاء ، ومحو الآثار الزاهرة المدنية التي كان يفخر بها الإنسان ويزهو . وذلك لأنه لما قامت الحرب الحالية واطلع كل من الفريقين المتحاربين على ما أنتجه الفريق الآخر من آلات جهنمية ، اقتنع الكل بأنه لا أمل في الغلبة إلا لمن يبتكر آلات أشد تدميراً من آلات خصمه ، وأقوى أثراً في الفتك من التي يستخدمها عدوه . وإذا بالفريقين يحشدون رجال العلم ويسخرونهم لتحقيق أغراضهم . وقد اقتضى ذلك السباق أن ازداد تشبث الفريقين بسياسة « الإنتاج على نطاق واسع » ، وبالتنظيم الدقيق للبحث والتحكم في عقول الباحثين بتوجيههم وجهات معينة ، بعد أن كانوا فيما مضى أحراراً في اختيار موضوعاتهم وطريقتهم والزمان الذي يناسبهم .

ثم نظر رجال العلم إلى النظم الاجتماعية القائمة وحللوها بطريقتهم العلمية الدقيقة الفاحصة ، فإذا بهم يجدون معظمها أجوف لا يستند إلى مبادئ قويمة ، ولا يقوم على أسس معقولة ، وإنما تقبله الناس لما كانوا فيه (في الفترة التي بين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحرب الماضية والحرب الحالية) من اضطراب وقلق وتلهف على تغيير الحالة القائمة . وقد كان الدافع الأساسى للشعوب التى ارتضت تلك النظم الواهية الدعائم هو ما أملوه من ورائها من عظمة قومية وتوسع استعمارى ، وربح مادى وتفوق عالمى . وهذه كلها تحوى فى ثناياها بذور الشقاق بين الأجناس ، ودلائل تأهب الإنسان لافتراس أخيه الإنسان .

* * *

ورأى رجال العلم كل هذا فهالهم أن يكونوا مسيرين إلى هذا الحد ، لا يملكون من توجيه السياسة العامة شيئاً مع أنهم عماد الحياة ورقيها فى السلم والحرب . عندئذ بدأ فريق منهم يتحرك ويكتب مناديا رجال العلم أن يهبّوا من سباتهم ، ويخرجوا من عزلتهم ، ويتركوا الحياد الذى التزموه ، ويستشعروا أن عليهم واجبات اجتماعية ، وأن لديهم رسالة يجب أن يؤدوها بأمانة للمجتمع الذى يعيشون فيه ، وليدركوا أن ذلك يستلزم أن يكون لهم صوت مسموع فيما يجب أن يكون عليه المجتمع ، وأن يشتركوا فى البحث عن النظم الجديدة التى ستوضع للعالم بعد الحرب . فمن السخف أن يفنوا حياتهم فى اكتشاف الحقائق وإخراج المخترعات وتنظيم الصناعة ، ثم يتركوا لغيرهم توجيه ذلك كله دون أن يشتركوا معه فى هذا التوجيه وفى استغلال ثمرة عقولهم على الوجه الذى يتفق مع نزعاتهم الطيبة ، ونظراتهم الصائبة ، وميولهم الإنسانية المعقولة . وعندهم أن النظرة العلمية هى وحدها التى تستند إلى أسس منطقية معقولة ، وهى التى تضمن للنظام الجديد الذى يبنى على أساسها استقراراً واستمراراً ونجاحا ، وتضمن للعالم هناءة وعدالة ، ووفرة وسلامة .

فإذا ما انتقلنا من ذلك إلى بحث الطريقة المثلى لهذا الاشتراك الفعلى لرجال العلم فى الشئون الاجتماعية والسياسية ، تشعبت بنا الآراء واختلفت المسالك . ولذلك نجد نخبة رجال العلم البارزين وقادة الرأى فيهم يطلعون علينا فى الفترة الأخيرة بكتب جديدة ، ومقالات ممتعة ، تحوى اقتراحات عديدة فى هذا الصدد ، ونراهم جميعا يتناولون تلك الاقتراحات والآراء التى تبدى بالتمحيص والدرس الدقيق بغية الوصول إلى خير الطرق وأنجعها . وشأنهم فى ذلك هو هو شأنهم فى جميع المسائل الأخرى ، حرية فى الرأى لا حد لها ، وتقبّل للرأى أنى كان مصدره ، وقرع للحجة بالحجة فى غير مراعاة ولا تهيب . فالجميع مقتنعون بأن كلا منهم قد تنزه عن الغرض الشخصى ، وأنه لا يبغى فيما يبدى ويقترح سوى المصلحة العامة .

* * *

ونحن نرى لزاما علينا قبل أن نتناول هذه المقترحات وتلك الآراء بالعرض والنقد ، أن نعرض لما هو أنفع لنا وألصق بنا هنا ، وذلك أن ننظر أولا فيما لدينا من طبقات العلماء ، وفيما أداه هؤلاء لمصر من خدمات ، وفيما تنتظره منهم من تبعات ؛ ثم نبحث فى نظرة أولى الأمر تجاه رجال العلم هؤلاء ، وفيما يجب على الدولة حيالهم كل ذلك يجب أن نعرفه قبل أن نحكم إلى أى حد يحق لهم أن يشتركوا مع زملائهم فى الدعوة القائمة ، وقبل أن نتبين إذا كان ما ينطبق عليهم هناك فى العالم الغربى ينطبق عليهم هنا فى العالم الشرقى . ذلك ما نرجو أن نتناوله فى المقال التالى .

إلى حضرات المشتركين

حددت إدارة مجلة الثقافة يوم ١٥ يوليه سنة ١٩٤٤ آخر موعد لتسديد النصف الثانى من الاشتراك عن سنة ١٩٤٤ فالرجو من حضرات المشتركين مراعاة ذلك .

الإدارة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢ - عبد الله نديم

كان مرة يجلس فى قهوة أيام المولد الأحمدى سنة ١٢٩٤ هـ ومعه طائفة من أصحابه ، منهم السيد على أبو النصر الشاعر ، والشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى الأديب الماجن ، فطلع عليهم اثنان من « الأدباتية » .

والأدباتية طائفة من المتسولين يستجدون بأدبهم الماهى ، وطلاقة لسانهم فى الشعر ، وحضور بديهتهم ؛ عرفوا بالإلحاح فى الطلب ، فإذا رددتهم أى رد أخذوا كلامك على البديهة ، وصاغوا منها شعراً يدل على استمرارهم فى طلبهم ، واستفواء ممدوحهم ؛ وقد جمعوا إلى طلاقة لسانهم وحضور بديهتهم منظرهم المضحك فى ملابسهم وحركاتهم ، فرز تحارج العمامة ، وطلة تحت الإبط ، وحركات يدور معها زر العمامة كأنه نحلة ، وتحريك لعضلات وجوههم كأنهم قردة ، وهكذا . وخولة الأدباتية تجمع سخرية لأديب . قرا على الحاضرين حتى وصلا إلى عبد الله نديم ، فقال أحدهما :

انعم بقرشك يا جندى	والا ! كنا أمثال يا أفندى
لعشـن أنا وحياتك عندى	بق لى شهرين طول جيعان

فأجابه عبد الله نديم على البديهة :

أما الفلوس أنا مدنيشى	وانت تقول لى ماشيشى
يطلع على عشيشى	أقوم أملص لك لودان

فرد « الأدباتى » ، ورد عبد الله نديم ، وظلا كذلك نحو ساعة ، ثم غلب الأدباتى فانصرف مهزوماً .

ونقل السيد على أبو النصر القصة إلى شاهين باشا كنج ، فاستظرفها جداً ، وخطرت له فكرة طريفة أيضا ، أن يقيم حفلا عاماً ، يدعو فيه كبار الأدباتية والزجالين ويدخلون فى مساجلة مع عبد الله نديم ، فيكون منظرا لطيفا ، ومحفلا ظريفا . ففعل ، ونصب سرادقا أمام بيته ، وأحضر رؤساء هذا الفن ، وشرط عليهم أنهم إن غلبوا كافأهم ، وإن غلبوا ضربهم ، فرضوا . واستمرت المساجلة نحو ثلاث ساعات ، غلب فيها النديم ، فكانت الحادثة سبب شهرته بين الأدباء والظرفاء .

لقد أخذ بعضهم عليه — فيما بعد — هذا الحادث ، وعيّره به ، وقالوا إنه رضى أن يقف موقفا يساجل فيه المتسولين ، وأن يكون « أدباتيا » مثلهم ، ينازلهم ويغالبهم على ملأ من الناس ، فثله مثل المصارعين أمام « الرقة » ، ولا يرضى لنفسه هذا الموقف إلا وضيع النفس ساقط الهمة .

والحق أن وضع المسألة هذا الوضع فيه كثير من التزمت والتعنت ، كالذى تعرض على مسامعه الفكاهة الحلوة فينتقد فيها خطأ نحويا أو لفظا لغويا ، وكمن ينتقد الشيخ الوقور على ما كان منه أيام الصبا ، والغنى الواسع الثراء على ما كان منه أيام البؤس والشقاء ؛ فالمسألة لم تعد أن تكون طرفة لطيفة ، وفكاهة ظريفة ، وقوانين الظرف تبيح من المجنونة فى مجالسه مالا تبيحه فى مجالس الجد والوقار .

أخيراً عاد إلى مسقط رأسه بالإسكندرية سنة ١٨٧٩م فى نحو الخامسة والثلاثين ، وهو أكثر خبرة بالدنيا فيما لقى من عظماء ووجهاء وأدباء ، وفيما رأى وسمع وعمل فى القصر العالى أيام كان موظفا فى تلغرافه ، وفى التجارة أيام تاجر وأفلس ، وبأخلاق الفلاحين أيام كان يمسّ أولاد أحمد « عمدتهم » ؛ ولكنه دخلها كما خرج منها صفر اليدين .

عاد فرأى فى الإسكندرية منظراً جديدا لم يكن أيام كان بها ، كانت المجالس الأدبية يوم فارقها تتحدث فى غزل أبى نواس ، ووصف البحترى ، وهجاء ابن الرومى ، ومديح الشعراء فى إسماعيل ، وفكاهات الشيخ على الليثى ؛ فإذا انتقلوا من ذلك فإلى من عارض شعر هؤلاء من المحدثين ، وما أنشأه الناشئون من سمار المجالس فى مثل هذه الأغراض ؛ ولما عاد إليها وجد المجالس تتحدث فى

نقد إسماعيل لإسرافه وتصرفه ، وفي الدول وتدخلها ، ورأى جمعية سرية تسمى « مصر الفتاة » يجتمع أعضاؤها فينقدون هذا كله في صراحة وحماسة ؛ والأدب يتحول فيأخذ شكل الكلام في الأمة ومصالحها ، وآلامها وآمالها ، ويحتل ذلك مكان غزل أبي نواس ، وشعر صريع الغواني ؛ والنفوس بفضل تعاليم « جمال الدين الأفغاني » وصحبه ثائرة تتطلع إلى نوع من الأدب غير الذي كان ، وتجد غذاءها في الصحف السياسية والمقالات النقدية ، فيشتغل في الصحافة من هذا النوع « أديب إسحاق » ، و « سليم نقاش » في جريدتيهما « مصر » و « التجارة » ، ويمدهما جمال الدين وتلاميذه بمقالاتهم وإرشاداتهم .

فأعد عبد الله نديم نفسه للأدب الجديد والطلب الجديد، وانغمس في هذا التيار ، وحول قلمه في هذا الاتجاه ، يمد هذه الصحف بمقالاته في مثل هذه الموضوعات ، فلقي من النجاح ما لفت إليه الأنظار . وكان له فضل كبير في إدراك أن الكتابة في الموضوعات السياسية إنما تحسن بأسلوب متدفق سريع مرسل لا يقيده السجع إلا قليلا ، ليتسع لحركات النفس المتحمسة الثائرة .

وفكر مع بعض أصحابه من أعضاء جمعية « مصر الفتاة » أن يحولوها من جمعية سرية إلى جمعية علنية ، تعمل جهاراً في الأعمال المشروعة ؛ وجد هو وصحبه يجمعون المال لها من أعيان الإسكندرية ، وسموها الجمعية الخيرية الإسلامية (وهي غير الجمعية القائمة إلى الآن بهذا الاسم) وكان من أهم أغراضها إنشاء مدرسة تعلم الناشئة على نمط غير النمط الجاف الذي تسير عليه مدارس الحكومة إذ ذاك ، فيضيفون إلى تعليم مبادئ العلوم بث روح الوطنية والشعور القوي بالأمة ؛ وقد كان هذا غرضاً جديداً دعا إليه الشعور القوي الذي كان في طور التكون .

وتم ذلك كله ، فجُمع المال ، وأنشئت المدرسة ، وجُعل عبد الله نديم مديرها ، وافتتحها بخطبة رن صداها في الثغر ، وكان ذلك في آخر أيام إسماعيل ، وأقبل عليها كثير من أبناء الفقراء والأيتام ، ووُضع لها برنامج يحقق الغرض ، وتكفل هو بتعليم الإنشاء فيها والأدب ، وأخذ يمرن الطلبة على الخطابة والتمثيل ؛ وعلى الجملة نفخ فيها من روحه ، ولعلها أول جمعية مصرية إسلامية في مصر أسست لمثل هذا الغرض .

ثم وثق الصلة بين المدرسة والقصر ، وكان الخديو إسماعيل قد عزل وحل محله الخديو توفيق ، فتقرب النديم إليه ، واستزاره المدرسة فزارها ، ورجاه أن تنسب الرياسة لولي عهده « عباس » فقبل . وأغرم بتعليم التلاميذ الخطابة ، فكان ينتهز كل فرصة لإقامة الحفلات يخطب فيها ، ويحضر الخطب لتلاميذه ليخطبوها ، ثم يمرنهم أن ينشئوا الخطب بأنفسهم ، ويصلح خطأها ويرشدهم ، فأسس بذلك نخبة يحسنون التحرير ، ويحسنون القول . ولم يكتف بذلك ، بل خرج بالمدرسة إلى ميدان الحياة العامة ، فكان يحضر بعض الروايات التمثيلية في نقد بعض العيوب الاجتماعية ، ويمثلها هو وتلاميذه في بعض الملاهي العامة ، من ذلك أنه ألف روايتين اسمهما « الوطن وطالع التوفيق » و « العرب » ، ومثلهما في « تياترو زيزينيا » ، حضرها الخديو توفيق ، ونجح فيهما نجاحا أغرى ذكره .

ولكن ظهر فساد في الجمعية نسبوه إليه ، ففصل من المدرسة ومن الجمعية .

عند ذلك اتجه إلى إنشاء صحيفة ، وحبب إليه ذلك سابقة اتصاله بصحيفتي أديب إسحاق وسليم نقاش ، ومرانه على الكتابة فيهما ، وشعوره بأن الناس أعجبوا بما كتب ، وأنه كان يكتب فيستغل أصحاب الصحف مقالاته مادة ومعنى ، فلا يؤجرونه على ما كتب ، وكثيراً ما يضنون عليه حتى بذكر اسمه في ذيل مقالاته ، بل يتركون القارئ يفهم أنها لهم ومن إنشائهم .

فأخرج صحيفة سماها « التنكيت والتبكيت » ، وفي هذا الاسم دلالة على غرضه وأسلوبه ، فهو يرمي إلى تأنيب المصريين على ما وصلوا إليه ، في أسلوب قد يكون لاذعا وقد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يكون ضاحكا .

وظهر العدد الأول منها في ٦ يونيه سنة ١٨٨١ ، ودعا فيه الكتاب أن يوافوه بمقالاتهم ونتاج قرائحهم على النهج الذي رسمه : « كونوا معي في المشرب الذي التزمته والمذهب الذي انتحلته ، أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال أدبية ، وتبكيت ينادي بقبح الجهالة ، وذم الخرافات ، لنتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مُثْلة في الوجود ، من ركوب متن الغواية ، واتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل » .

وفي الحق أن هذه الصحيفة كانت عجباً في موضوعاتها وأسلوبها .

انظر العدد الأول ، تجد تنكيتاً وتبكيتاً لأكبر المصائب التي كان يحسها ذلك العصر : مقال عنوانه « مجلس طبي لمصاب بالأفرنجي » ، وهي قصة شاب صحيح البنية ، قوي الأعصاب ، جميل الصورة ، لطيف الشكل ، في رغد أبويه وعذوبة كلام ، وفي عزة ومنعة لا [illegible] يلتف حوله أهله يعززونه ويؤازرونه حتى لا تمتد إليه يد [illegible] ولا حيلة محتال — وبينما هو في ذلك تسلل إليه أحد الماكرين يتظاهر بالصلاح والتقوى ، ويضمر الختل والغدر فأسلمه أهله إليه اعتماداً به . فمر به هذا الماكر على الأسواق يريه من الغواني من تعارض الشمس بحسنها ، وتكسف البدر بنورها ، فتابع حيناً ، ولكنه رأى أهل بيته قد وقعوا في مثل هذه الغواية ، وانغمسوا في مثل هذه الضلالة ، فسار سيرهم ، وترك النفار والإباء ، وسار في الطريق الذي رسمه المنافق الخادع ، فما سار فيه حتى أصيب بالداء الأفرنجي (الزهري) ، فاصفر وجهه ، وارتخت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عيناه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع ، وتمكن الداء منه وسرى في دمه وعروقه ، فصار يقلّب طرفه لعله يجد من قومه من ينقذه من مرضه .

واجتمع الأطباء من قومه يفحصون الجسم ، ويشخصون مرضه ، ويقفون على أصله ، ويركبون الدواء ليقف سريان الداء ، وتطلب منهم أهل المريض يسألونهم الإسراع في معالجته ، والاجتهاد في دفع مصابه ، فطمأنهم الأطباء ، ونصحوهم بالهدوء ، والتحرز ممن كانوا السبب في الداء ، حتى لا يفسدوا العلاج ؛ وابتدأوا يعملون بمشورة الأطباء ، ويبذلون الجهد في معالجته .

وواضح أن هذه قصة رمزية ، أراد أن يصوّر فيها شعور الناس في هذه الفترة بعد ما كان من الإسراف في عهد إسماعيل ، ووقوع مصر في الديون الباهظة ، وتدخل الدول الأجنبية ، من مراقبة ثنائية وإنشاء صندوق الدين ، وما إلى ذلك ، كما يصور بها ألمَ الناس من هذا المرض الأفرنجي ، وأملهم في النجاة منه بسعي عقلائهم ، وتفكير أولي الرأي فيهم — كل ذلك في أسلوب روائي مفهوم .

فقد كانت هذه المسألة هي صميم المسألة المصرية ، ومشكلتها الكبرى ، فبدأ بها على هذا النحو ، وعالجها هذا العلاج [illegible] التورية بكلمة « الداء الأفرنجي » .

ومثل ذلك مقال في « عربي تفرنج » ، يصف فيهما شاباً من صميم الفلاحين ، تعلم في مصر ، ثم في أوروبا ، وعاد إلى بلاده يستقبله أبوه لما قابله على المحطة وقبّله ، كيف يقبّله ، ويطالبه أن يسلّم عليه بيديه فقط ، ويكتفي بأن يقول له « بن اربيه » ، وينسى لغته ، حتى اسم البصل ، فهو لا يعرف إلا أن اسمه « أونيون » — ويختم هذا بالمغزى من القصة ، وهو أن لا أمل في مثل هؤلاء ، إلا إذا حافظوا على لغة قومهم وعاداتهم ، وصرفوا علومهم في تقدم بلادهم .

ثم يقص قصة موسرين اجتمعوا في بيت أحدهم ، دخل عليهم فوجدهم ساهين لا يتكلمون ولا يتحركون ، فظنهم يفكرون في أمر خطير شغل أذهانهم ، وعقد لسانهم ، كتفكيرهم في تقدم الصنائع في أوروبا ، وكيف يفعل ذلك في مصر ، أو يفكرون فيما يزيد ثروتهم ، ويضمن التقدم في عملهم ؛ ثم يتبين بعد ذلك أنهم إنما

اجتمعوا لتعاطى الكيف ، وأخذ « النزول » ليكون الواحد مبسوطاً لا يسأل عن الدنيا وما فيها ، فإذا « ون » قام إلى مكان نومه ، وقضى ليلة سعيدة — وقال مالنا وللدنيا وما جرى فيها ، ومالنا وللصحف والتلغرافات ، ونحن كلنا بحمد الله فى غنى عظيم ، عندنا الخدم الذين يقومون بأعمالنا ، وقد خلّف لنا آباؤنا من المال ما لا تفنيه الأيام — فلا نخرج من بيوتنا إلا للمسامرات بالمضحكات والنكات الظريفات .

ثم قصة ترمى إلى نقد ما كان يجرى بين العامة من اجتماعهم فى القهوة ، وسماعهم للقصّاص (الشاعر) ، وانقسامهم إلى معسكرين : متعصب لعنترة ، ومتعصب لزغبة ، وما كان من أحدهم — وقد ختم القصّاص الليلة بوقوع عنترة أسيراً — إذ ذهب إلى ابنه وأيقظه من نومه وأمره أن يقرأ فى الكتاب حتى يخلص عنترة من الأسر ، وإلا مات كمداً ، فلما لم يطعه ابنه ، وأفهمه أن هذا تخريف فى تحريف ، نزل عليه بعصاه حتى أدماه [illegible] .

ويلى هذه قصة تمثل الفلاح الجاهل [illegible] إذ أراد الفلاح أن يقترض منه مائة جنيه ، فأعطاه سبعين ، وكتب عليه « كمبيالة » بمائة وعشرين ، وحسبها كما يأتى : المائة فائدتها عشرون ، تخصم من المائة فيكون الباقى سبعين ، وتضم الفائدة فيكون عليه مائة وعشرون ؛ ويقتنع الفلاح بذلك لجهله بأبسط مسائل الحساب . ثم يقدّم الفلاح للمرابى قطناً وقمحاً ثمنهما الحقيقى ١٢٥ جنيهاً ، يحسبها المرابى بأربعين ، ويغالطه أغلاطاً مضاعفة حتى يجعله مديناً بمائتى جنيه وعشرة ، كل ذلك والفلاح فى غفلة لا يدرى ما يُصنع به — فإذا عوتب المرابى على ذلك قال : ماذا أصنع ! إن الفلاح حمار ، وأنا أريد أن أكون غنياً كبيراً فى خمس سنين !

ثم قصة غنى كبير بنى بيتاً فخماً ، وأثثه أثاثاً بديعاً ، وكان من أثاثه مكتبة كبيرة ، فلما أتم ذلك كله عرضه على الزائرين ، فسأله أحدهم عن المكتبة وما تحوى ، ليعرف أى نوع من العلوم والفنون يهوى ، فقال الغنى صاحب البيت : لقد دخلت بيت فلان وفلان فرأيت فى مضيفة كل منهم خزانة كتب عليها ستارة خضراء وبجانبها منفضة من الريش ، والخادم كل يوم ينفضها ويمسح الزجاج والخزانة ، فعلمت أن هذا طراز جديد فى بناء البيوت وتأثيثها ، فقلدتهم فى ذلك ، ولا علم لى بعلم أو فن ، « وهكذا أصبح الكل نائماً فى غفلة التقليد » .

* * *

ثم هذا كله فى العدد الأول من صحيفة « التنكيت والتبكيت » ، نقد للسياسة العامة للبلاد ، ونقد للعيوب الاجتماعية الخاصة . كل ذلك فى أسلوب يسترعى الانتباه . فقد التزم اللغة البسيطة السهلة عن تفكير وروية ، فقال فى فاتحتها : إنه لا يريد منها « أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ، ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ، ولكن أحاديث تعودناها ، ولغة ألفنا المسامرة بها ، لا تلجئ إلى قاموس الفيروزآبادى ، ولا تلزم مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطر لترجمان يعبّر عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر معانيها ؛ وإنما هى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، و « نديم » يسامرك بما تحب وتهوى »

ثم هو يدرك أن فى الناس خاصة وعامة ، وكلٌّ يجب أن يُقصد إلى تغذيته بالأدب وإشعاره بوجوه النقد ، لذلك يختار موضوعات الخاصة فيكتبها باللغة الفصحى كموضوع « الداء الأفرنجى » ، فهو موضوع دقيق لا يقدر قدره إلا الخاصة ؛ أما الفلاح والمرابى وسمّاع القصّاص فمكتوبة للعامة ، فيجب أن تكتب بلغتهم العامية . وهو فى اللغة العامية ماهر كل المهارة ، يعرف أمثالهم وأنواع

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كلامهم ، ويضع على لسان الخادم والسيد ، والمرأة والرجل ، والفقير والغنى ، والشاكر والمغفل ، ما يليق به فى دقة وإحكام وظرف .

ثم هو قد فطن لشىء جليل القدر ، وهو أن التعليم والنقد من طريق القصص أجذب للنفس وأعمل فى النقد ، فأكثر منه بل كاد يلتزمه .

لذلك كله نجح فى صحيفته ، ووصل تداولها إلى أكبر عدد ممكن ، فمن كان قارئاً قرأ ، ومن لم يكن قارئاً سمع ففهم

ولم يكتف بذلك بل نراه فى عدد تال يلتفت التفاتة لها خطرها فى الإصلاح السياسى والاجتماعى ، وهى أن من أهم أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة ، وانحصارها – تقريبا – فى خطب المساجد ، وهى خطب لا تمس الحياة الواقعة بحال من الأحوال ، وإنما هى عبارات دينية محفوظة ، ومعان متكررة مألوفة ، لا تحرك قلباً ولا تضىء حياة .

فكتب مقالا قوياً فى قيمة الخطابة وأثرها فى تاريخ الإسلام ، ودعا إلى أن يحضّر خطب [illegible] بشؤون الحياة ، وأقدرهم على التأثير ، وعلى [illegible] الخطب الوقت الحاضر فى وضوح ، وتبيّن الأخطار المحيطة بالأمة فى جلاء ، وأن يتبرع القادرون بقدر من المال يخصص لهذا الغرض ، ويتفقوا مع ديوان الأوقاف ليسمح بإلقاء هذه الخطب فى المساجد ، ثم تطبع وتنشر فى أنحاء البلاد ليصل صداها إلى كل قرية وبلدة ؛ وأعلن استعداده للاشتراك فى إعدادها ، ووضع خطبة نموذجية توضح غرضه .

تتضمن هـذه الخطبة النموذجية ، المحافظة على حقوق البلاد ، والنهى عن الظلم والبغى ، والدعوة إلى الائتلاف لمواجهة الأخطار التى تظهر دلائلها فى الأفق ، والاتحاد مع المواطنين من غير نظر إلى اختلاف الدين ، والتذكير بمجد مصر السابق ، والالتفاف حول الخليفة والخديو ، والتحذير من تمكين الأجنبى من وضع يده على سياسة البلاد ، والتحرز من إتيان عمل يتخذه وسيلة لتدخله ، ومعاملة النزلاء الأجانب بالحسنى ، من حفظ حقوق تجارتهم ، وعدم الإساءة إليهم .

هـذه هى المعانى التى رأى أن الحاجة ماسة إليها فى ذلك الوقت (فى أول حكم الخديوى توفيق قبيل الثورة العرابية) ، صاغها صياغة دينية تناسب صلاة الجمعة ، فبدأها بالحمد لله ، والثناء على رسوله ، وختمها بالحديث الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » — وقد حقق « الراديو » أخيراً فكرة عبد الله نديم فى إذاعة الخطبة شكلا ، ولكن لما تتحقق فكرته موضوعا .

وانتهت هذه الصحيفة على هذا الوضع .

يتبع

أحمد أمين

متفرقات

الآلة ضرب خلق عظيم ، فأنت إذا وقف لك حصان أو حمار وأبى السير فقدت صبرك وتملكك الغضب ، وانهلت عليه ضرباً ؛ [illegible] الآلة ووقفت على تفكير فى ضربها ، [illegible] ذلك لا يجدى نفعا ، بل ستفكر بهدوء ، وتفحصها من كل جوانبها حتى تهتدى إلى موضع الخطأ فيها ، وتلك هى التربية الصحيحة .

الأستاذ جلبرت موره

* * *

امتاز شرطى بسهولة قبضه على المتهمين من غير جلبة أو ضجيج ، فسئل فى ذلك ، فقال :

« إنى أتبع نفس الطريقة كثيراً مع زوجتى ، فهى إذا انتابتها نوبة من الغضب وعلا صياحها — كما يحدث أحياناً — لم يكن ثمة فائدة فى أن أقابل صخبها بضجيج أعلى ، ولا أن أرد على كلامها بمثلها ؛ ووقفت على الطريقة الصحيحة فى مثل هذه الحالة ، وهى أن أقابل هذه الجلبة العالية منها بهمسة خافتة ألقيها فى أذنها ، فتبرد حماستها ، ويسكن ضجيجها . وكذلك اعتدت أن أهمس فى أذن السكير الصاخب فآخذ عليه بهذا الهدوء مسالكه ، ولا يلبث أن يسلم يده . وما أخفقت طريقتى هذه قط » .

رسائل صينية

الرسالة الثالثة

لقد قرأت حديثاً في صحيفة من صحفكم «أن الهدف الأسمى لأمم أوروبا هو أن تمدّن الصين». فإذا كان الأمر كذلك فإن الوسائل التي اتخذت لتحقيق هذه الغاية وسائل فذة ولا شك. ولست آمن نفسي أن أخوض في سيرتها. فأنا واثق من أن السلب والنهب والفوضى والخراب والقتل والاغتصاب أمور لا توافقون عليها هنا في إنجلترا، بل إنكم فيما أعتقد تمنعونها ما استطعتم؛ ولست أرجعها في الواقع إلا إلى الفوضى التي تسود فرقكم من سوء نظامها. إني لا أذكر مثل هذه الأمور في هذا المجال لمجرد إظهار استهجاني لها، لأن السؤال الذي يتردد في نفسي دائماً عندما تتحدثون عن المدنية هو: أي نوع من الرجال أخرجت مدنيتكم للعالم؟ وهذه الحوادث الأخيرة في الصين لا توحي فيما يلوح بجواب شافٍ عن هذا السؤال؛ ولكني لا ألحّ في طلب هذا الجواب، فقد تكون المدنية — مدنيتنا ومدنيتكم سواء بسواء — مجرد قشور؛ وقد يكون الوحش كامناً في أعماق الإنسان أبداً، مستعداً دائماً لأن ينقض على فريسته متى فتحت له الأبواب بفضل تدبير محكم، أو فرصة سانحة. إننا في هذا مثلكم على كل حال يُحكم علينا بما يحكم عليكم به، وما آخذنا ومعايبنا في هذا كمآخذكم ومعايبكم، ترتد إلى أقوام يعددونها لأنها تنطبق عليهم هم أيضاً. من أجل هذا أمرّ على مثل هذه المناظر من جيشكم مرّ الكرام، لأقف أمام أحوال الحياة العادية. والآن أي الرجال نحن وأي الرجال أنتم حتى يحق لكم أن تصفونا بأننا همج متوحشون؟ نعم! أي الرجال نحن؟ إنه لسؤال عسير عليّ أن أجيب عنه. وإني لأقلّبه في أفكاري ساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم، فلا أجد وسيلة أستطيع بها أن أقدم إليكم شيئاً مما يدور في خلدي من أمره أجدى من أن أحاول أن أرسم لكم صورة — أن أرسمها صادقاً أميناً، فهي ما إن تزال تطاردني وتلحّ على نفسي وعقلي كلما سرت في أيام الشتاء في شوارع عاصمتكم السوداء المعتمة.

هناك في الشرق البعيد جداً حيث الشمس مشرقة إثر أقتام ترى، فقد لطختم حتى هذا القليل منه الذي عندكم، ولوّثتموه بالدخان؛ هناك على ضفة النهر العريض يقوم البيت الذي فيه وُلدت. إنه بيت بين الآلاف من أمثاله، ولكنها كلها تقوم وسط حدائقها الخاصة، وكلها قد لونت في بساطة بالأبيض أو الرمادي، وكلها متواضعة بهيجة طليقة. ولأميال عديدة على طول الوادي الممتد ترتفع أسطح هذه المنازل ملونة بالأزرق أو الأحمر وسط بحر من الخضرة النضرة، بينما يلوح هنا أو هناك بريق الذهب الذي يكسو قمم المعابد الطويلة من بين باقات من الشجر الأخضر. والنهر كالطرق العديدة وقد غص بالقوارب والزوارق، ينساب على صفحته الرائق الصافي حركة مرور نشيطة من الأسواق الريفية على ضفتيه. فالفلاحون الواقفون المجدون يملأون المنطقة كلها؛ يملكون الأرض التي يحرثونها، تلك الأرض التي قد ملكها آباؤهم من قبلهم وحرثوها مثلهم؛ إنهم يستطيعون أن يقولوا إن الأرض التي يعملون عليها قد صنعوها هم بأيديهم. ولك أن تنظر إليها لتتبين صدق قولهم، فهذه التلال الجدبة قد أصبحت كلها تتموج من أسفلها إلى قممها بالخضرة النضرة، بالقطن والأرز والقصب والبرتقال والشاي؛ وهذا سفح الوادي قد ازدان بأحزمة فضية من ماء النهر يتساقط من قناة إلى قناة في آلاف من الشلالات اللامعة البراقة، ثم ينكسر في القناطر ليتفرق في المواسير ويغمر الأرض التي تعتمد حتى تنضر. وهكذا يوزع بالعدل والقسطاس ويملأ من الخصب والخضرة والحياة في سخاء ووفرة. ولك أن ترى في كل ساعة وأنت تجتاز

ARCHIVE

القناطر الصغيرة والطرق الملتوية المتعرجة آثار الأجيال التي خلت، وإلى جانبها جهود أبنائهم من بعدهم إلى أن تصل إلى حيث يستسلم الإنسان عاجزا أمام الطبيعة، فتتجلى حرة لم يسيطر عليها أحد. وإذا المنحدرات قد كسيت كساء وردياً ذهبياً لازوردياً من الزهور المختلفة الأشكال والألوان، زهور فتية قد نمت في وفرة مفعمة بالحياة الفائرة. كم جلست هنا وسط هذا السكون، سكون بلغ من عمقه أني كنت أستطيع أن أنصت فيه إلى حفيف ظل الشجر يتحرك على الأرض كما قال أحد شعرائنا؛ سكون لا يشوبه إلا أصوات الفلاحين يتنادون من حين إلى حين عبر النهر، وإلا صوت نواقيس المعابد يشع في الوادي يدعو الناس إلى الصلاة في الفجر والغروب. أي سكون وأي أصوات! وأي عطر وأي ألوان! إن الحواس لتحيا بكل هذا وتنعم به، بل إنها لترق بسببه إلى درجة لا تمكن معكم في جوكم الشمالي أن تتبينوها أو تدركوها. إن جمال الطبيعة حولنا يتسرب إلى أعماقنا فيشكل [illegible] حتى ينسجمان معه.

فإن امتزنا نحن الصينيين بآدابنا وفنوننا وأخلاقنا فالسبب في ذلك واضح لكل ذي عينين. إن الطبيعة حولنا هي التي علمتنا؛ ونحن في هذا أحسن منكم حظاً. ولكن مما يعود الفضل فيه إلى ذكائنا وليس إلى حسن حظنا، أننا كنا مستعدين لأن نتلقى عن الطبيعة درسها؛ ذلك أنه في هذا الوادي الجميل، كما لا يخفى عليكم، تعيش آلاف الأنفس لا يحكمهم دستور سوى التقاليد، ولا يسيرهم قانون سوى قانون الأسرة. إنهم صناعون مهرة نشطوا في صناعتهم، ولكنها الصناعة التي لا تكادون تعرفونها في أوروبا؛ إنها صناعة الأحرار يعملون فيها لأهلهم ولذويهم، يعملون فيها على الأرض التي ورثوها عن آبائهم ليسلموها من بعدهم إلى أبنائهم، وقد أخصبوها بكدهم ورووها بعرق جبينهم، ولا مطمع لهم وراء ذلك، فلا يعنيهم أن يجمعوا الثروة بحال من الأحوال.

ولئن كان منهم في كل جيل من يترك وطنه ليجوب العالم، فقد كان يرحل عن الصين وملء صدره أمل لا يخيب في أكثر الأحيان، ذلك هو أمل العودة إلى وطنه حيث ولد ليقضي أعوامه الأخيرة بين المناظر التي أحبها في شبابه، والوجوه التي كان يعزها في صباه. إنه بين قوم كهؤلاء لا يكون مجال للمنافسات الحقيرة الحادة؛ فلا سيد ولا مسود في الصين. ولكن المساواة الجسمة الملموسة الحقة هي التي يعتمدون عليها في معاملاتهم، وهي التي تنظم الصلات بينهم. إن الكد الذي يفيد الجسم والروح، والراحة الكافية والضيافة الطيبة، والقناعة التي تدعمت بحكم العادة في نفوسهم، والتي لا تؤرقها خيالات الأطماع والجشع، والحس المرهف لكل ما هو جميل، الذي أوحت به أجمل طبيعة في العالم وأعذبه وأروعه، والذي يتجلى في السلوك الجميل والمعاملة الرقيقة، إن لم يجد له متنفساً لأن يتجسم في صورة فن خالد، هي صفات قوى الدين ولمت بينهم. أيمكن أن يكون [illegible] معاملاتهم؟ قد تكون. أيمكن أن يكون الخيال قد أضفى جماله على صباح الصبا؟ من يدري؟ ولكني أوقن بشيء واحد، ذلك أن حياة كتلك التي وصفتها، حياة قامت على أساس العمل في الأرض، وبنيت على قواعد المساواة الحقة والعدل التام، توجد فعلا في الصين، بل إنها لتملأ الصين طولا وعرضا في ازدهار ونشاط، فماذا عندكم يا هؤلاء الذين تريدون أن تمدنونا، مما تستطيعون أن تقدموه إلينا عوضا عن هذه الحياة؟ واحسرتاه! إنه باسم هذا الدين قد ارتكبتم ما لا يستطاع وصفه. أأخلاقكم؟ تُرى أين نجدها؟ نعم أين أخلاقكم تلك؟ أذكاؤكم؟ وإلى أين قادكم؟ أين منكم في إنجلترا صورة يمكنكم أن تقدموها لنقارن بينها وبين ما رسمتُ لكم من الصين؟

هذا هو السؤال الذي سأحاول أن أجيب عنه.

دكتورة سهير القلماوي

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

منزلة الوالدين (١)

تبلغ منزلة الوالدين في أعين طفلهما حد التقديس ، فهما في نظره كل شيء ، وهما المثل القدسي والقوة المسيطرة ، ومرجع كل صغيرة وكبيرة ؛ وهما يكونان له وحيا وإلهاماً وعزاءً ، وقوة تزيد في سروره وتنقص من آلامه ، فتجده بين رفقائه فخورا بهما ، يتيه إعجابا لما لهما من « سعة الاطلاع ، ووافر المعرفة ، وغزير العلم »

* * *

فإذا ما شب وترعرع ، فتحت سواعده الفتية ، وتفتحت قواه العقلية والعاطفية الملتهبة ، وانتقل من مرحلة تدريس إلى أخرى أعلى وأرفع ، عندئذ يقل مستوى التقديس رويداً رويداً ، وتبدأ في نفسه غريزة طبيعية هي مزيج من الغرور والاعتداد بالنفس . فتجده يقول : « لا ريب أن والدي قد خبرا الحياة وعرفا كثيرا من [illegible] ولكن هناك بعض أشياء ما زالا يجهلانها . [illegible] غفلنا في وصفهما بالكمال ... »

* * *

ثم يشب الفتى ، ويضحى شابا طموحا متوثبا ، يتسع أمامه أفق الحياة بعد أن كان محدوداً مركزاً ، وتظهر أمامه العلوم والفنون متشعبة متفرعة ، والآراء فيها مختلفة متباينة ؛ هنا ، يصطدم جيله بجيل والديه ، وتفكيره بتفكيرهما ، ومستقبله بماضيهما . هو نشيط طموح ، وهما رزينان وقوران ؛ هو مندفع بتمنياته وأخيلته ، وهما ثابتان بتجاربهما ؛ هو يتطلع إلى المستقبل منتظراً آماله ، وهما يستمران في حنين للماضي ، فتجده يهمس بينه وبين نفسه : « إن والدي لا يدركان مطامع الشباب ومآربه ، إن أفكارهما ونصائحهما قديمة بالية ، إن أفادت جيلا مضى فهيهات أن يسترشد بها شباب جيل يتمتع بدرجة محترمة من التعليم والثقافة والمدنية ... »

* * *

ثم تمر الأيام ، ويصبح الشاب رجلا حنكته الأيام وعصرته التجارب ، فنضج عقله ، وابتدأ يزن الأمور على حقيقتها ، واستوى فهمه ووثق من نفسه ، وأضحى تفكيره مرتبا منطقيا . في هذه السن ينظر الرجل إلى والديه من جديد نظرة احترام وإجلال ، يعلي من شأنهما ، ويقدر نفسيتهما . فإذا ما سألته عن رأيه فيهما لأجابك : « إن الإنسان لا يستطيع أن يعطي والديه حقهما عليه . إن تفكيرهما لسليم ، غالباً ما يصيب . وكأن العناية الإلهية قد خصتهما بجزء كبير من عنايتها ... »

وأخيرا ماذا عسى أن يكون رأي شيخ في والديه إذا كان قد أطال في عمرهما . أو ماذا عساه أن يقول في وخشيته عليهما إذا كانا قد سبقاه إلى القبر ؟ إنه يصفهما بالـ[illegible] ، وكلامهما درر ، وأقوالهما عبر ... أمد الله في [illegible] رحمة واسعة !!

م. أحمد أمين

(١) عن مجلة « بارید » بتصرف .

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

* * * *

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك عن ستة أشهر
مليم
٤٥ في مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

الطب العربي البابلي

يجتمع قريبا في بيروت مؤتمر الطب العربي لتوحيد الجهود في سبيل محاربة الأمراض المتأصلة ، والاهتداء إلى أقرب الطرق وأنجعها لرفع مستوى سكان البلاد الصحي . لذلك رأيت من المناسب أن أفتح أمام القارئ صفحة من صفحات تاريخ الطب العربي منذ أقدم عصوره .

ولاشك عندي في أن الإلمام ببعض ما كان عليه ذلك العلم في فجر تكوينه ، أعني في الألف الثالث قبل الميلاد ضرورة لا بد منها للذين يعنون بتاريخ الطب وتطوره ، أو تتبع الأدوار المختلفة التي مرت بها مفرداته اللغوية ، سواء منها تلك التي وضعها الشعب يوم كان الطب شعبيا ، أو أوجدها الإخصائيون لما أصبح علميا . ولست في حاجة إلى القول إن القارئ لن يتطلب مني أن أعرض له في مقال الثقافة الأمراض وتشخيصها ، والعقاقير و[illegible] دقيقاً ، لسببين لا ثالث لهما : أولهما أن (الثقافة) ليست مجلة طبية ؛ وثانيهما لست أنا بالطبيب الذي يملك من المهارة الفنية الحظ الكافي الذي يمكنه من وضع ألفاظ واصطلاحات اللغة الطبية القديمة في أسلوب عربي حديث . وإذا آثرت العرب البابليين الأشوريين على سواهم من سائر الشعوب العربية الأخرى التي قامت لها في الجزيرة العربية وخارجها حضارات ومدنيات ، فإنما لغناء التراث الذي وصلنا عن سكان الرافدين ووفرته ؛ فما نعلمه اليوم عنهم بفضل أعمال الحفر التي تقوم بها الجامعات الأمريكية والأوربية في بلاد العراق وما جاورها ، يفوق بكثير ما نعرفه عن معظم الشعوب العربية الأخرى التي عاصرت البابليين الأشوريين .

وقد رغبت في الطب لعلمي بالاستعداد الفطري الكامن في العنصر العربي ، أو إن شئت فقل العنصر السامي ، لمزاولة الطب والنبوغ فيه نبوغا بوأه منذ القدم أسمى الأماكن وأرفعها . فالتاريخ المصري القديم يحدثنا أن فرعون مصر أمينوفيس الثالث استدعى طبيبا أشوريا لمعالجته ، لما هدته العلة واشتد به المرض ، رغما من ازدهار الطب ورقيه عند قدماء المصريين . وما جاء في المصادر المصرية تردده مصادر أخرى لكثير من شعوب العالم القديم التي كانت تربطها وأرض الرافدين علاقات ثقافية .

ولعل السبب في ذلك النبوغ يرجع إلى أن العربي بطبعه متفائل راغب في الحياة ، آخذ بأسبابها ، كما تدلنا على ذلك أساطير وآداب الساميين القديمة وعقائدهم الدينية المختلفة . السامي راغب منذ القدم في البقاء ، فرفض فكرة الفناء ، واعتقد في البعث ، كما اعتقد في الحياة الأخرى والثواب والعقاب . فمن هذه عقيدته في الحياة طبيعي أن تراه يبذل كل ما في طاقته لجعل هذه الحياة الطويلة سعيدة غير تعسة ، وسليمة غير معتلة . وهو في عمله هذا يؤدي عملا يقرب من العبادة إن لم يكن هو العبادة ، لذلك رأينا في سائر الديانات العربية اهتماما خاصاً موجها إلى المحافظة على الصحة والاحتفاظ بالجسم سليما قويا ، ومحاربة كل ما من شأنه إفساد عمل عضو من أعضاء جسم الإنسان أو الإضرار به ، مع الحث على الأخذ بأسباب الحياة الطبيعية غير الملتوية أو المعقدة . الأخذ بأسباب الحياة مع العناية بجسم الإنسان عقيدة دينية ، إذاً رغبة من الرغبات الإلهية ، وكل ما يحول دون تنفيذ هذه الرغبة ، يجب أن يكون من عمل طائفة غير طائفة الآلهة ، أعني طائفة الأرواح الشريرة . وبما أن هذه الكائنات شريرة وجبت إذاً محاربتها ، ووجبت مطاردتها ، ووجب القضاء عليها إن أمكن . وما هي الوسيلة لبلوغ هذه الغاية ؟ السحر . السحر إذاً وسيلة من وسائل التخلص من الأرواح الشريرة ، أو بعبارة أخرى وسيلة من وسائل العلاج والشفاء ، كما أنه سبب الداء .

ونحن إذا رجعنا إلى معاجمنا اللغوية نطلب إليها الإفصاح عن مدلول لفظ (طب) رأيناها تطالعنا بكثير من

المعاني التي ترجع إلى تلك العصور الغابرة . وصاحب اللسان روى لنا أن الطب هو السحر ، وقد قال ابن الأسلت :

ألا من مُبلغ حسّان عني أطُبّ كان داؤك أم جنون

ورواه سيبويه أسحر كان طِبُّك ، وقد طُبّ الرجل ، والمطبوب المسحور . قال أبو عُبيدة إنما سمي السحر طبًّا على التفاؤل بالبرء . . . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه احتجم بقرن حين طُبّ . قال أبو عبيدة طُبّ أي سُحِر ، يقال منه رجل مطبوب أي مسحور . وفي الحديث : فلعل طبًّا أصابه أي سحرا .

وإذا كان المرض من عمل الشياطين ، فالعلاج يجب أن يأتي من عند الآلهة . والأسطورة البابلية تحدثنا أيضا أن الإله (إيا) هو رب الحكمة وإله المعرفة ، وهو الجد الأكبر للأطباء . والإله (إيا) كما مر أيضا هو سيد البحار والأمواه ، ومن الماء جعل الله كل شيء حياة . فالتعبير بالماء أو كما يعبر عنه بالبابلية (أس) هو الطبيب والأسو عبارة عن علم الطب ؛ ومن اللغة البابلية الأكادية انتقل إلى سائر اللغات السامية كالآرامية والعبرية والعربية . والأسا في العربية مفتوح مقصور المُداواة والعلاج ؛ وأسا الجُرْحَ أسْواً وأساً : داواه . والأسْوُ والأساء جميعا الدواء ، والجمع آسية ، قال الحطيئة في الأساء بمعنى الدواء :

هُمُ الآسُونَ أُمَّ الرأس لما تواكلها الأطبّةُ والأساءُ

والآسي الطبيب . وإذا تتبعنا هذه المادة في اللسان وجدناها مستعملة في معناها الأصلي المتصل بالماء ؛ فقد ورد والآسي ماء بعينه ، قال الراعي :

ألم تتركْ نساءَ بني زُهَيْرٍ على الآسي يُحلّقن القُرونا

لكن الماء ليس هو الدواء الوحيد الذي تحتاج إليه أمراضنا وجروحنا ، لذلك نجد إلى جانب الإله (أيا) آلهة أخرى اختص كل منهم بعلاج مرض خاص ، فمنهم الإخصائي في علاج الفم والأسنان من سائر أعضاء الجسم وأطرافه ، ومن أشهر هؤلاء الآلهة الإله (نينجيزيدا) . ومن حسن الحظ فقد عُثر على رمزه ، وهو عبارة عن عصا التف حولها ثعبان . ومن كان يدور بخلده أن الثعبان شعار الطب والأطباء في عالمنا القديم والحديث يرجع إلى هذا الرمز العرقي البابلي ؟ أما السر في اختيار هذه الأفعى فهو الاعتقاد بأن الثعبان باستبداله ثوبا (جلدا) بثوب يجدد شبابه ، فيكتسب حياة جديدة ، فالثعبان إذاً خالد لا يموت ، لذلك قُدس قديما ، واتخذ كرمز من رموز الحياة الأبدية .

ولم يمض زمن طويل حتى أخذ الطب الشعبي الروحاني يفسح الطريق لطب آخر يعتمد على الخبرة والتجارب أكثر من السحر والشعوذة ، أعني الطب العلمي . وأهم المصادر التي يعتمد عليها رجال الساميات اليوم لدراسة هذا الطب العلمي ، هي النقوش البابلية القديمة ، ومن أهمها تلك التي عثر عليها في مكتبة الملك الأشوري (أشوربانيبال) ، ولو أن هذا الطب كان معروفا من قبل بدليل اهتمام شريعة حمورابي بتشريع عدد كبير من المواد المتعلقة بالأطباء والجراحين ، والبيطريين في أمراض البشر أو الحيوان . وأهم هذه النصوص التي عثر عليها في مكتبة (أشوربانيبال) هي تلك التي عرضت فيها بعض الأمراض والعقاقير ، وكيفية تحضيرها وطريقة استعمالها ؛ فقد وصلنا مثلا نص مقسم إلى ثلاثة أعمدة ؛ في العمود الأول الدواء ، والثاني الداء ، والثالث طريقة استعمال الدواء . مثلا : جذور عبّاد الشمس — لشفاء وجع الأسنان — توضع على الأسنان .

ومن مراجعة هذه النصوص وتلك التي عُثر عليها في سجلات الحكومة الحيثية (القرن الثالث عشر قبل الميلاد) ، يتبين لنا أن الطريقة التي كانت متبعة عند وضع المراجع الطبية هي تقسيم المادة حسب أعضاء جسم الإنسان ، فتذكر مثلا أولا الأمراض الخاصة بالرأس وعوارضها ، والأدوية الخاصة بعلاجها ، ثم ينتقل إلى الصدغين ، فالأذن ، فالعين ، فالصدر ، وقد أسهبت النصوص التي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عثر عليها في وصف أمراضه ، فمن حمى باطنة ، إلى سعال ، ومن تقلص في الحقوين إلى وجع في الظهر ، وقد يكون كل ذلك مصحوبا ببلغم وصعوبة في التنفس وضيق في الصدر ، إلى جانب الدم الذي قد يصحب به بصاق المريض أحيانا ، ومتى بلغ المريض هذه المرحلة ففي رئتيه صديد ، ومن فم الرئة اليسرى يسيل دم منتن . وبعد ذلك نجد عرضا دقيقا لأمراض أخرى باطنة متعددة ، كتلك التي تصيب المعدة أو القلب أو الكبد أو الطحال . ومن الجدير بالذكر هنا أن الطبيب العراقي البابلي تنبه إلى العلاقة بين داء الصفراء وأمراض الكبد . وفي نصوص أخرى حديثا طويلا عن الأمراض الجنسية والتناسلية وأمراض الرحم والحمل والوضع . وقد اهتدى رجال الساميات إلى نصوص كتاب كامل خاص بالأعصاب ، وفيه كلام كثير حول العضلات والأمراض التي تنتابها ؛ ومن أمثلة ما جاء به أن أعصاب الفخذ إذا لم تقو على مساعدة صاحبها في القيام أو السير فهي مريضة ، وقد يكون [illegible] الظهور منذ عامين ؛ ومن عوارض هذا المرض أيضا ظهور الدم على الجلد ، ويكون في الساق وخز كوخز الإبر ، وإذا كانت هناك حرارة في القدمين فيشعر المريض بثقلهما ولن يستطيع رفعهما ، أما إذا انتفخت أعصاب القدم فلن يستطيع المريض السير ، وإن تقادم به المرض أصيب بالكساح .

أما طرق العلاج فمختلفة ، فمنها العمليات الجراحية ، والتدليك ، والحركات الرياضية ، والبخور ، والاستحمام بالماء الساخن ، إلى جانب العقاقير المختلفة المأخوذة من النباتات أو الحيوانات أو المعادن . أما النباتات فيظهر أنها قامت كما تقوم اليوم بالدور الهام في تركيب الأدوية ، حتى أصبح اسمها في البابلية (شم) علما على الطب والعقاقير أيضا ، وبهذا المعنى انتقل اللفظ إلى معظم اللغات السامية (سم) . ومن أشهر النباتات والأشجار والأعشاب التي كانت مستعملة قديما النخيل ، الزيتون ، التين ، الكمثرى ، الثوم ، البصل ، الكمون ، القثاء ، السمسم ، الورد والر . ومن الحيوانات والطيور : الغنم ، الحمير ، الثعالب ، النعام ، البجع ، الغربان ، البوم والحمام . ومن المعادن : اللازورد ، والكبريت ، والنحاس ، والملح . ولم تستعمل هذه العقاقير بحالتها الطبيعية ، بل كانت النباتات مثلا تجفف ثم تدق دقة يختلف حسب الحاجة والنوع . أما الثمار أو البقول فكانت تقشر ثم تعصر وتمزج أو تتناول على حدة . وكان الدواء يستعمل إما من الظاهر وإما من الباطن ، سواء كان سائلا أو جافا أو لزجا . والسوائل كانت تتعاطى غالبا باردة ، وأنسب الأوقات لتجرعها الصباح قبل الشروق أو في الليل ؛ وكانت لا تتجرع دفعة واحدة ، بل توزع على ثلاث مرات ؛ وفي بعض الحالات كان يكرر الدواء في مدة تتراوح بين ثلاثة أيام وسبعة . أما الأدوية التي كانت من الباطن ، فقد استعان الأطباء على توصيلها إلى الداخل بالفتحات الطبيعية الموجودة في جسم الإنسان مستخدمين أحيانا بعض الأنابيب [illegible] البرونزية .

دكتور فؤاد حسنين

مكتبة نقابة الصحفيين

تتوالى على مكتبة نقابة الصحفيين الهدايا القيمة من الهيئات الحكومية ، وأعلام الأدباء والمؤلفين ، وكبار الناشرين ، معاونة لها على تحقيق رسالتها الثقافية ، ومنها : مجموعة من مجلس الشيوخ لمطبوعاته ومضابطه من عهد مجلس شورى القوانين إلى سنة ١٩٤٣ .

مجموعة من مجلس النواب لمضابطه من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٤٣ ، ومجموعة من المجمع اللغوي : مجلته ومحاضره ومصطلحات العلوم التي أقرها .

وأهداها مدير قسم النشر بالسفارة البريطانية طائفة من الكتب العربية والإنكليزية والفرنسية .

وأهدتها مكتبة النهضة المصرية ٣٥ مجلدا من نفائس مطبوعاتها الحديثة .

والنقابة تشكر لحضرات رؤساء الهيئات والجماعات والأعلام المؤلفين وكبار الناشرين فضلهم المذكور

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من نصوص كتاب « رسوم دار الخلافة »[١]

العمائم

رُسُوم لبسها ونزعها[٢]

« في دور الخلفاء والأمراء والسلاطين وبحضرتهم »

تمهيد

قيل قديماً: العمائم تيجان العرب. وقد وصفها أبو الأسود الدؤلي بقوله: « جُنَّةٌ في الحرب، ومَكَنَّةٌ من الحرّ، ومَدفأةٌ من القرّ، ووقارٌ في النديّ، وواقية من الأحداث، وزيادة في القامة، وهي تعد عادة من عادات العرب ». وقال عمرو بن امرئ القيس

يا مالِ والسيّدُ المعمَّمُ قد
يَبْطَرُ بعد رأيه السَّرَفُ
نحنُ بما عندنا وأنت بما عند
ك راضٍ والرأيُ مختلفُ[٣]

فهذا خبر وصف يصوّر لنا العمامة ومنزلتها عند العربيّ، وهو الذي يفخر بها ويتباهى، ويحرص عليها حرصه على سيفه وإبله. والعرب لم يكتفوا بلبسها، بل تعدّى الأمر إلى أن يستفيدوا منها من غير هذا الوجه، « لأنّ العمامة ربما جعلوها لواء؛ ألا ترى أنّ الأحنف ابن قيس يوم « مسعود بن عمرو » حين عقد لعبّيس ابن طلق اللواء، إنما نزع عمامته من رأسه فعقدها له، وربما شدّوا بالعمائم أوساطهم عند المجهدة وإذا طالت العقبة، ولذلك قال شاعرهم:

دُفِعْنا إليه وهو كالذّيخ خاظياً
تَشُدُّ على أكبادنا بالعمائم

وقال آخر:

خليليّ شُدّا لي بفضل عمامتي
على كبدٍ لم يبقَ إلا صميمها[١]

وأخبار العمائم مما يطول شرحه ويعسر مناله في مقال، لأن أخبارها منثورة في كثير من الكتب العربية القديمة، فضلاً عن أنّ غير واحد من المؤلفين الأقدمين والمحدثين أفرد لها كتاباً قائماً بذاته[٢].

ومُرادنا في هذا البحث أن نتناول رسوم لبسها ونزعها في حضرة العظماء، وفي دورهم، فإنّ في ذلك طرافة أدبية وتاريخية.

تحريم نزع العمائم في دور العظماء وبحضرتهم

كان من الرسوم المتبعة عند دخول الناس على الخلفاء [illegible] وعلى السادة والعظماء، أن يدخلوا وهم [illegible] لأنّ ذلك أشبه بالاحتفال وبالتعظيم والإجلال، وأبعد من التبذل والاسترسال، وأجدر أن يفصلوا بين أنسهم في منازلهم ومواضع انقباضهم »[٣].

ولكنّ بعض الناس ومنهم من له جلالة ورياسة، كانوا يدخلون دور العظماء من خلفاء وأمراء وسلاطين وقضاء أشغالهم، ولم يراعوا الرسوم المتبعة بشأن العمائم

(١) رسوم دار الخلافة لهلال بن المحسن الصابي (المتوفى سنة ٤٤٨ للهجرة)، وهو كتاب أعددناه للنشر بعد أن حققناه وعلقنا عليه، وألحقنا به ملاحق متنوعة.

(٢) مجلة الرسالة الأعداد: (٤١٨ و ٤٢٩ و ٤٥٣).

(٣) البيان والتبيين للجاحظ (٣: ٦٩؛ طبعة السندوبي)

(١) البيان والتبيين (٣: ٧٢).

(٢) نذكر منها الكتب التالية:

(ا) فضل لباس العمائم لابن وضاح الأندلسي المالكي.

(ب) تحفة الأمة بأحكام العمة — أي العمامة — لأبي الفضل محمد بن أحمد المعروف بابن الإمام.

(ج) در الغمامة في در الطيلسان لشهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي المكي.

(د) شارع الشفا التامة في صفة العمامة لشهاب أحمد بن محمد المقاصي.

(هـ) الدعامة في أحكام سنة العمامة لمحمد بن جعفر الكتاني الحسني.

(٣) البيان والتبيين (٣: ٧٧).

وغيرها من لباس الرأس ؛ إذ كانوا يزعمونها ظنّاً منهم أنّ أمرهم يُشْغَل لا تَرْفَعه أصحاب الأخبار إلى الخليفة ، أو إلى الأمير ، أو إلى السلطان ؛ لكن الأمر جرى على الضدّ من ذلك ، فلاقوا من الأمر أرذله ، ومن الإهانة أقبحها . فمن ذلك ما رواه محمد بن عبدوس الجهشياري (المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة) قال : « وكان عيسى (بن عبد الرحمن) كاتب طاهر (بن الحسين) لما دخل مجلس الفضل (بن سهل) نزع قَلَنْسُوَتَه وجعلها إلى جانبه ، ثم فَعَلَ ذلك مراراً . فقال نُعَيْم بن خازم ليعقوب بن عبد الله ؛ وكان يعقوب آلفاً لعيسى : إن العبّاس — يعني عيسى — إذا جلس في مجلس الأمير — يعني الفضل — رفع قَلَنْسُوَتَه عن رأسه ، وهذا استخفافٌ منه بالأمير ، وقد أنكره الناس وتكلّموا فيه ، فأعلمه ذلك ليمسك عنه فيما يستقبل ، فإنه إن عاود دَنَوْتُ منه ووردت [illegible] على رأسه بعنف وتنكر . فقال يعقوب [illegible] فقال له : بأيّ شيء رددتَ عليه [illegible] مغرورٌ ، ولعلّه قد استأذن الأمير [illegible] لا يجهل ما يأتي ويذرّ . فقال : والله ما بي أنّي مغرورٌ ، وما استأذنتُ ، ولكني أريد أن يعلم الفضلُ أولاً ، ثم مَن حوله ، أنّه أهونُ عليّ وأدقّ في عيني ما دام صاحبي — أعزه الله — حيّاً ، من هذه الشعرة — وقلع شعرة من عُرْف دابته — ومن فوق نُعَيْم ، فضلاً من نُعَيْم ، أشدُّ تهيّباً للإقدام عليّ بشيء أنكره ، فلا يدخلك من قولهم شيء . وعرّف نُعَيْم بن خازم ما قاله[1] .

ونظير هذا الخبر ما ذكره هلال بن المُحَسِّن الصابئ بقوله : « وحدثني جدّي (أبو إسحق إبراهيم الصابئ)

(١) الوزراء والكتاب (ص ٢٩٤ ؛ طبعة مزيك) = (ص ٢١٠ — ٢١١ ؛ طبعة السقا والأبياري وشلبي) = (ص ٢٥٤ — ٢٥٥ ؛ طبعة الصاوي) .

أنّ السكريّ أبا الهيثم حضر يوماً في دار عَضُد الدولة ، وأخذ عمامته من رأسه ووضعها بين يديه ، ورآه بعض أصحاب الأخبار ، فكتب بما كان منه ، وخرج أستاذُ دارٍ فمزّق به وشتمه ، وأخذ العمامة من رأسه وضرب بها رأسه حتى تقطّعت قطعاً ، ووُكّل به واعتقله ، فسئل فيه عَضُد الدولة ، وقيل : هذا رجل محرور الرأس ولا يستطيع ترك العمامة على رأسه ، وإنما فعل هذا لذلك ، لا لجهل بأدب الخدمة . فبعد مراجعات ما ، أمر بإطلاقه »[1]

ثم ذكر خبراً طريفاً بهذا الشأن في عرض كلامه على قوانين الحجابة ورُسُومها ، قال فيه : « ... وحدّثني إبراهيم بن هلال جدّي ، قال : حدّثني جعفر بن ورقاء الشيباني ، قال : كنتُ في أيام المعتضد رحمة الله عليه ، مع طائفة من أولاد الأمراء والقوّاد ، مرسومين بالمُقام في الدار (دار الخلافة) على رسم الخدمة بنوائب كانت لنا ؛ [illegible] حجرة نستريح فيها بعد انقضاء الخدمة [illegible] فننزع خفافنا ، ونضع عمائمنا عن [illegible] الشطرنج والنرد . فاطلع علينا أحد أصحاب الأخبار في الدار ؛ فكتب بخبرنا إلى المعتضد بالله ونحن لا نعلم . فلم يبعد أنْ خرج خادم صغير من خواصّ الخدم ، وفي يده القَصَص المرفوع في أمرنا ، وعلى ظهره توقيع بخطّ المعتضد بالله رحمة الله عليه ؛ حكايتُه : (يَتَسْتَصْفِعُونَ وما لهم من صَافِع) ، فسلّمه إلى خفيف السمرقنديّ الحاجب ، وصنع الله لي أنْ لم يكنْ ذلك في يوم نوبتي ؛ فحين وقف على القصص والتوقيع انزعج ونهض واستدعى مَن كان في النوبة ، فضرب كلّ واحد منهم عدةَ مقارع ، فما رُئي بعد ذلك إلّا لازمٌ للتوقّر على الخدمة ، متجنّبٌ للتبذّل »[2] .

وقد روى هلال فيما نقله عن جدّ إبراهيم الصابئ

(١) رسوم دار الخلافة (المخطوطة ؛ ص ١٠٦) .
(٢) رسوم دار الخلافة (المخطوط ؛ ص ٩٩ — ١٠٠) .

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

الذى خدم الخلفاء والأمراء والسلاطين ، وبرع فى آداب الخدمة ورسومها ؛ عدة أخبار فى هذا الباب ، وكأنه رواها لتكون موعظة بليغة وسبيلا ممهدة لمن يهم بالدخول على دور هؤلاء العظماء . قال هلال : « وحدثنى إبراهيم ابن هلال جدى ، قال : حدثنى المكنى أبا على الحسن ابن محمد الأنبارى ، قال : كنت أخط بين يدى دلويه الكاتب ، وهو يتولى كتابة سلامة أخى نجح (الطولونى) الملقب فى أيام القاهر بالله بالمؤتمن ، وسلامة إذ ذاك حاجب القاهر بالله ، وكنت أجلس فى دهليز باب الخاصة الذى يلى دجلة من دار السلطان ، وأخدم صاحبى فيما يستخدمنى فيه ؛ فإنى لجالس متملق على دكة هناك ، إذ جعلت إحدى رجلى على الأخرى ، وكان بإزائى صديق لى من خلفاء الحجاب يود لى ودا شديدا ، فوثب إلى وضرب رجلى ضربة مؤلمة بعصا كانت فى يده ، فقمت مذعورا ، فقال : يا أبا على ، اعرف لى موضع مناصحتى [illegible] لو أن هاهنا من أتخوف أن يرفع الخبر ، [illegible] على مسامحتك . فقلت : وأى شئ أنكرت على ؟ وأى شئ سامحتنى ؟ — فقال : نحن مأمورون إذا رأينا أحدا من الناس كلهم قد جلس فى دار السلطان هذه الجلسة التى جلستها ، ووضع إحدى رجليه على الأخرى ، بأن نجر رجله من موضعه حتى نخرجه من حريم الدار ، ونهانى عن المعاودة إلى ذلك ، وعن أن أكشف رأسى ، أو أتبذل أو أمزح ، أو أرفث فى شئ من تلك المواضع . فشكرته على ما عاملنى به وأرشدنى إليه » (١) .

هذه قبضة أخبار ، فى جميعها منع وتحريم لنزع العمائم بحضرة العظماء وفى دورهم ، ولكن لكل قاعدة شواذ . فهنالك أخبار أخرى تنم على تساهل وتسامح بنزع العمائم فى دور هؤلاء القوم أو بحضرتهم ؛ ودونك ما وقفنا عليه :

(١) رسوم دار الخلافة (المخطوط ؛ ص ١٠٤ — ١٠٦) .

٢ — نزع العمائم فى دور العظماء وبحضرتهم :

لعل الخليفة المأمون كان أكثر الخلفاء تساهلا فى السماح لمن يغشى مجالسه بنزع العمامة ، ولم يكن ذلك فى مجلس أنسه وراحته فحسب ، بل تعدى الأمر إلى مجالسه الأخرى . فقد نقل لنا المسعودى حكاية جاء فيها : « وكان يحيى بن أكثم يقول : كان المأمون يجلس للمناظرة فى الفقه يوم الثلاثاء ، فإذا حضر الفقهاء ، ومن يناظره من سائر أهل المقالات ، أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا أخفافكم ، وأحضرت الموائد ، فقيل لهم أصيبوا من الطعام والشراب ، وجددوا الوضوء ، ومن ضاق عليه خفه فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها ؛ فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وتطيبوا ، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنون منه ، ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين . فلا يزال كذلك إلى أن تزول الشمس ، وتنصب المائدة ثانية فيطعمون وينصرفون » (١) .

وذكر أبو الفرج الأصفهانى نبأ آخر فى هذا الشأن ، قال فيه : « حدثنى محمد ، قال : حدثنا أبو العيناء ، قال حدثنا محمد بن عباد المهلبى ، قال : لما مات أبو عيسى بن الرشيد (سنة ٢٠٩ للهجرة) دخلت إلى المأمون وعمامتى على ، فخلعت عمامتى ونبذتها وراء ظهرى — والخلفاء لا تعزى فى العمائم — ودنوت ، فقال لى ... » (٢) .

أما فى ديار الأندلس ، فكان التساهل كبيرا فى رسوم نزع العمائم فى قصور العظماء وبحضرتهم ؛ وشاهد ذلك قول ابن سعيد (المتوفى سنة ٦٨٥ للهجرة) فى المغرب : إن « الغالب على أهل الأندلس ترك العمائم ولا سيما فى

(١) مروج الذهب (٧ : ٣٨ — ٣٩ ؛ طبع باريس) .
(٢) الأغانى (١٠ : ١٩٠ ؛ طبع دار الكتب المصرية) = (٩ : ٩٢ ؛ بولاق) = (٩ : ٩٣ ، الساسى) .

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

قصة :

بلسم ... !

قطب الطبيب جبينه ، وأزاح عوينـاته الزجاجية فى عصبية ، وهو ينظر إلى الباب وقد كان يوصد برفق ، ثم تهافت على المقعد الكبير الذى يواجه المكتب ، وراح يفكر فى هذه اليد المرتعشة التى أوصدت الباب ، وصاحبها ذى الوجه الأصفر المتقع ...

إنه مخلوق تسرع رهيب نحو القبر ، ودماؤه تنسحب رويداً من كل أطرافه ، تاركة خلفها ذلك الاصفرار الباهت ، وتنكمش فى قلبه لكى تجمد هناك . وهذه العروق التى ضربت أطرافها الدامية فى عينيه كأيدى الأخطبوط ، وتطاولت ترسم دوائر زرقاء حول مقلتيه . . . إنها إنذار مخيف ...

أى قوى فى العالم تستطيع أن تقطع ذلك الحبل الضخم الذى يشده إلى الهاوية ... بل أى معجزة ...

كان الطبيب يعرف ما هو اليأس ، وكان مستعداً دائما لأن يملأ ضميره بهذه الراحة الفكرية التى لابد منها حين يصبح الرجاء عبثاً . ولكن هذا الشاب ...؟! إن كل كلمة فاه بها كانت تنهال على ضميره كالسياط ، وتملأ أذنيه بصيحات مختلفة معذبة ، وأصوات ملتاعة كتلك الآتية من بيت يحترق . . .

يأس ؟! أية جريمة إذن يرتكب ...

أخذ يستعيد فى ذاكرته كل ما قاله ذلك التعس :

« أشعر يا دكتور كأنى لست من هذا العالم ، الدنيا مصفرة فى وجهى ، وكثيرا ما تنقلب إلى ظلام . والناس من حولى يموجون ويصخبون ، ولكن لا يصل إلى أذنى من ذلك إلا طنين كطنين الذباب . وكثيراً ما تمر بى لحظات أفقد فيها الشعور ، فإن أفقت أحس برأسى كقطعة من الجحيم ، وكثيراً ما تدفعنى أيضا رغبة ملحة إلى البكاء ، فأبكى حتى تجف دموعى ...

يخالجنى يا دكتور شعور خفى ، ويلاحقنى فى كل خطوة أخطوها ، بأن الناس يكرهوننى ويزدروننى ويشمئزون منى ، فأهرب منهم وأخفى نفسى عن عيونهم وحدى كمنبوذ ، حتى كرهت الناس وكرهت نفسى ...

أنا أعيش فى جحيم لا يطاق ، ولطالما نظرت إلى المرآة فخيل لى أننى جثة بلا روح ، وأن ذلك الهيكل الذى لم يعرف من الشباب غير اسمه ، قد أصبح شبحاً من الأشباح ، خنقت على الدنيا ، وحطمت المرآة كى أعيش بعيداً حتى عن نفسى ...

أنا لا أعرف يا دكتور ما الذى يعذبنى ، وكل ما أعرفه أننى إنسان ناقص لا يصلح للحياة . فترقبت الموت كالملاح التائه يرقب الشاطئ . ولكن الموت لما اقترب منى خشيته كما أخشى الحياة ، وكرهته كما أكره الناس ، ووجدتنى أفر منه وأهرول كالمجنون لأختبئ من شبحه ...

أنا معذب يا دكتور بين الحياة والموت ، واليقين والشك ، والأمل واليأس ، فأتيت إليك أخيراً لكى تريحنى وتطمئننى . هل حياة أم موت ؟

شرق الأندلس . وقد رأيتُ عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية حضرة السلطان فى ذلك الأوان وإليه الإشارة ، وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة وهو حاسر الرأس ، وشيبه قد غلب على سواد شعره . وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة فى شرق منها أو غرب . وابن هود الذى ملك الأندلس فى عصرنا رأيته بجميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة ، وكذلك ابن الأحمر الذى معظم الأندلس الآن فى يده »[1].

(بغداد) ميخائيل عواد

(١) الرسالة (العدد ٣١٤ ، ص ١٣٥٩) ، نقلا عن المغرب فى حلى المغرب .

ضم الطبيب ما بين حاجبيه ، ثم ضغط بأصابعه الرهيفة على عينيه ، كأنما يريد أن يمحو من مخيلته تلك النظرات الحالمة الضارعة في عيني ذلك التعس . وحانت منه التفاتة إلى خزانة كتبه حيث تجمعت كل ما توصلت إليه العقول من دقائق هذا الجسد العجيب ، وكل ما عرفه البشر من معجزات الطب . هنالك بين طوايا الكتب آلاف من أنواع البلاسم ، ومن العقاقير أصناف لا تحصى ...

ولكن .... كثيرا ما تطغى على كل هذا وتغطيه علامة استفهام كبيرة ، تتراقص أمام عيني الطبيب كابتسامة ساخرة من فم شيطان ! فما الطب ، وما الكتب ، وما الأدوية ، وكل ألوان البراعة البشرية ، أمام هذا اللغز الذي يندس أحيانا في جوف ذلك الإنسان المعقد ، وينفث أعراض الموت في جسم لا يعثر فيه الطبيب على علة ... ؟

ابتدأ اليأس من جديد يفتح ذراعيه الرهيبتين ليطويه بينهما ، فينتشله من عناء الفكر إلى هذه الراحة التي يستشعرها جسد الميت — إن كان الأموات يجدون في رقادهم مثل الراحة التي يشعر بها التاعبون — ولكن سرعان ما تقلصت أسارير وجهه ، وارتسم في ذلك الخط الرهيب الذي بين شفتيه عناد شديد ، ثم انتصب في عصبية وهو يتمتم محنقا . يجب ألا يموت ...

وخطا في حجرة الفحص بضع خطوات ، ثم رجعها مرة أخرى ، وعاد فجلس على المقعد الكبير وراح أيضا يفكر . أجل ! يجب ألا يموت . ولكن ... أي معجزة من معجزات الطب تعطيه الحياة ؟ لقد قال له الآن أن يعود في المساء ، فماذا عساه يقول له في المساء ؟

ورفع الطبيب رأسه إلى السماء ، كأنما يستمد منها العون ، ثم عاد يجول بنظره في حجرة الفحص الهادئة . فهذا هو السرير الذي يتمدد عليه المرضى وقت الكشف ، وهذه منضدة ملأى بالمباضع والماسك ولفافات القطن ؛ وهنالك في الزاوية آلات الأشعة والكهرباء ؛ وتلك في الوسط منضدة أخرى تحوي أصناف الأدوية والعقاقير ، ولكنه أشاح بوجهه ، ونظر في الأرض التي تحت قدميه ، ثم تمتم : كل هذا لا ينفع ...

وفجأة أفاق الطبيب من خواطره على صوت قرع الباب ، فسمح في ذهول للطارق بالدخول . ففتح وظهرت من خلفه الممرضة بوجهها الساذج الصبياني ، وثوبها الأبيض الأنيق ، وطلبت منه في استحياء تشوبه ذلة مستحبة أن يأذن لها بالانصراف إلى بيتها . فتهلل وجهه لهذا المحيا الصبوح . وأذن لها بما طلبت في صوت شجي النبرات . . . وخرجت الممرضة طروبة تتوارد على شفتيها الرقيقتين عبارات الشكر التي يخفيها الحياء فما تكاد تسمع ، وأوصدت الباب خلفها ، وانجمد صوت الحذاء وهو يوقع على الأرض نغمة واحدة تتكرر حتى اختفى . . .

وقطب الطبيب جبينه مرة أخرى ... ولكن ما لبث برهة حتى شاعت على محياه ابتسامة مشرقة ، ونهض فجأة في خفة وهو يصيح . يجب ألا يموت ....

وألقى على حجرة الكشف نظرة استخفاف .... ثم خرج وأوصد الباب ... في هدوء ...

***

وهنا سكت صديقي برهة وهو يقص على هذه القصة ليسليني بها في مرضي ، فشوقني سكوته إلى معرفة ما انتهى إليه الزميل المريض . وقلت له أستحثه : ثم ... ؟

قال صديقي : ثم في اليوم التالي أفرد الطبيب لهذا الشاب حجرة مجاورة لحجرة الفحص ، وابتدأ في علاجه .

قلت : وهل اهتدى إلى دواء يعالجه به ؟

فابتسم ابتسامة خبيثة وقال : نعم . كان يعطيه ملعقتين بعد كل وجبة .. من الماء القراح .. !!

***

لقد وجد في غرفته الجديدة ، كل ما كان يكرهه في بيته ، وجد ذلك السكون الذي كان يفزع منه إلى

الضوضاء ، فترده هذه مرتميا إلى السكون ؛ ووجد الظلمة التي كانت تصب في عينيه سوادا رهيبا فيرتمي بين أحضان النور ، فيهرول روح الخفاش التي فيه إلى الظلمة ؛ ووجد الجدران التي يضيق بها صدره المضطرم ، فيندفع إلى الفضاء الفسيح الذي يغرق أنفاسه بمثل ثقل الماء ، فيكر راجعا كالغريق يضرب بيديه على وجه البحر ، ويلق بنفسه بين الجدران ؛ ووجد نفسه التي حاول أن يفر منها قد لاحقته صائحة في أذنيه بصيحات الحياة والموت ، واليقين والشك ، والأمل واليأس . . . . كل ما هرب منه من متناقضات تمزق روحه وجده في بيت الطبيب . . . ولم يجدّ عليه إلا شيء واحد ...

شيء واحد وجده مغايرا كل المغايرة لشكل ما رآه من أشياء ، شيء أشعره بأن هنالك ستارا كثيفاً يغطيه ، ووراء هذا الستار سر ، شيء أحس بأنه — دون أن يعلم — كان يبحث عنه ولا يجده ، شيء تسرب إلى نفسه كذلك الشعاع من ضوء الشمس الذي يخترق غرفة حالكة السواد ... لقد أحس بهذا الشيء أول الأمر ولم يعرفه ، أحس به أول الأمر إحساساً غامضاً لم يعرف كنهه ، ولم يعرف بالضبط مصدره من هذه الشبكة الممتدة في كيانه كأسلاك البرق ، فما كان يشعر منه إلا بمثل ما يشعر به شخص غرزت في جسمه إبرة مورفين . كان يشعر بتخدير يبعث في نفسه رخاوة لذيذة ، ولكن هذا الإحساس ما لبث أن قوى وابتدأ يتبينه ...

وكانت الدنيا يومئذ تتشكل أمام ناظريه بألوان قوس قزح ، متتابعة ، متعددة ، زاهية ، ويختلط الموت والحياة في مزيج عجيب كان يسكره ، وتمر صور اليقظة أمامه كأنها الحلم ، والأحلام تتراقص في عينيه كأنها حوادث اليقظة ، وتتداخل الأحاسيس في بعضها فلا يشعر منها إلا بنشوة السكران ، والدماء في جسمه تتواثب وتعدو ...

وكان الطبيب يتتبع كل هذه الأحاسيس في عيني مريضه ، وكان يعرف من قبله ذلك الشيء الجديد الذي وضعه في طريقه ، لأنه البلسم الذي لم تشر إليه أبدا كتب الطب واعتمدت أكثر منه زيت الخروع وكبد الحوت ... والذي ينظر إليه الصيادلة ساخرين إذا طلبنا إليهم تحضيره ، وهم معذورون لأنهم يجهلون نسبة مزج الأملاح والأقرباذينات التي منها يتكوّن ...

كان الطبيب يتتبع أحاسيس مريضه ، وهذا يدور بعينيه في غرفته ، وقد ظل أسبوعا يدور بعينيه باحثاً عن ذلك الشيء الجديد الذي يحس به ولا يراه ، حتى عثر عليه أخيراً ، نعم عرفه وعرف مصدره . . . . إنه كامن في تلك النظرة الطويلة الحنون التي تغرقها في عينيه ممرضته الجديدة حين تسقيه كوب اللبن في الصباح ...

وسمع الطبيب ضحكا طروبة لم يسمعها من قبل ، فاسترق الطول إلى حجرة المريض ، وفتح بابها فرآه بعيدا عن سريره في ركن من أركان الغرفة ، وخداه متورّدان وهو يصيح صيحات نشوى جذلة ، وقد راح يلاحق ممرضته ، باحثا أيضاً ولكن بسمة من شفتيها ...

ابتسم الطبيب ، وخرج يتمتم .. لقد تمت المعجزة ... وأوصد الباب ... في هدوء .

● ● ●

قال صديقي وقد كنت أناوه من المرض : أرأيت ..؟
قلت : نعم ! لقد أحبّ . أما أنا ...

زينب شيمى

إدارة البلديات العامة

تقبل العطاءات بمجلس طنطا البلدي حتى ظهر يوم ١٩٤٤/٦/٢٢ عن توريد ٦٥٠ أردبا من الشعير وترفق العطاءات بتأمين ابتدائي قدره ٣٪ من قيمتها وتطلب الشروط من المجلس المذكور على ورقة دمغة فئة ٣٠ مليما.

٢٣٠٥

مخطوط نفيس

كتاب الفاضل
فى الآداب والبلاغات

لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الأعرابى الوشاء

عثرنا فى المكتبة الخالدية فى بيت المقدس على مخطوط نفيس رقم ٣ باسم « الفاضل فى الآداب والبلاغات » لابن الأعرابى المعروف بالوشاء . وقد جاء فى آخر الكتاب (فرغ من نسخة لثمان بقين من ذى القعدة سنة تسع وثمانين وخمسماية)[١] ، فيكون عمر الكتاب اليوم سبعمائة وأربعاً وسبعين سنة .

وقد انتقلت ملكية الكتاب أكثر من مرة ، ويظهر أن هذه النسخة الفريدة كانت ملكاً لسريجا بن محمد الدين محمد بن سريجا الملطى[٢] ثم البارودى الذى كان من أعيان بلاده فى الفقه والقراءآت والأدب ، وله تصانيف منها شرح الأربعين النووية سماه (نشر الفوائد الربعين النبوية فى نثر فوائد الأربعين النووية) ، وجنة الجازع وجنة الجارع ، وسد باب الضلال وصد باب الفلال فى ترجمة الغزالى ، ونظم قصيدة فى القراءات السبع بوزن الشاطبية ؛ مات بماردين سنة ٧٨٨ وله ثمان وستون سنة ؛ وقد أخذ عنه ولده عقيل الذى مات سنة ٨١٤[٣] . هذا وقد ظهر خط سريجا على الصفحة الأولى من الكتاب ، كما ظهر خط ولده عقيل ، وانتقل الكتاب بعد ذلك إلى محمد بن على القرشى المتطبب والحسن بن على الحصنى سنة ٩٩٣ وغيرهم .

وقد تبين من دراسة الكتاب أن المؤلف قد ألف كتبا لم يأت على ذكرها ابن النديم ، حاشا الكتاب الخامس . أما الكتب فهى :

١ — المرتضى فى حسن عفو الأدباء عن هفوات الأخلاء .

٢ — أخبار بنى هاشم .

٣ — الابتهاج فى الصبر المؤدى إلى الانفراج .

٤ — البلاغة من وصايا المحتضرين ذوى الآراء والعقل الرصين .

٥ — القلائد فى أخبار متظرفات الولائد .

٦ — البلاغة من سائر العجم وما يؤثر عنهم من بارع الحكم .

٧ — البلاغة من ذوى الرشاد فى حسن وصايا الأولاد .

والمؤلف هو أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق الأعرابى الوشاء أحد الأدباء الظرفاء ، وكان نحويا معلما لمكتب العامة[١] . والغالب عليه تصنيف كتب الأخبار كالشعر والمقطعات ، وله من الكتب : كتاب مختصر فى النحو ، كتاب جامع فى النحو ، كتاب المقصور والممدود ، كتاب المذكر والمؤنث ، كتاب الفرق ، كتاب خلق الإنسان ، كتاب خلق الفرس ، كتاب المثلث .

وأما كتبه الأدبية الأخبارية فهى : كتاب أخبار صاحب الزنج ، كتاب الزاهر فى الأنوار والزهر ، كتاب الحنين إلى الأوطان ، كتاب حدود الظرف الكبير ، كتاب الوشى[٢] ، كتاب أخبار المتظرفات ، كتاب السلوان ، كتاب الموشح ، كتاب سلسلة الذهب[٣] . ويلاحظ من هذا أن كتاب أخبار المتظرفات هو ذات الكتاب الذى يشير إليه المؤلف فى كتابه الفاضل . وقد جاء فى معجم الأدباء ج ١٧ —

(١) يطرؤها البعض وسماية .

(٢) نسبة إلى ملطية بلدة قريبة من ديار بكر تشتهر اليوم بتفاحها .

(٣) شذرات الذهب الجزء السادس ص ٣٠١ .

(١) لم نعثر على هذا الاصطلاح إلا فى ابن النديم ، ونفهم من ذلك أنه مكتب يؤمه من شاء من الطلاب .

(٢) طبع هذا الكتاب فى مصر باسم كتاب الظرف والظرفاء سنة ١٣٢٤ فى المطبعة الحسينية .

(٣) انظر فهرست ابن النديم ص ١٢٦ .

ص ١٣٢ أن أبا الفرج بن الجوزي يقول في تاريخه إن أبا الطيب الوشاء مات سنة ٣٢٥ ، وله ابن يعرف بابن الوشاء ولم يذكر تاريخ ميلاده .

وأبو الطيب ابن الأعرابي هذا النحوي المعلم غير أبي عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي اللغوي الكوفي ، ربيب المفضل الضبي ، وصاحب كتاب النوادر[1] والمتوفى سنة ٢٤١ هـ[2] . فالنحوي المعلم هذا ينقل عن ابن الأعرابي اللغوي الأديب ويروي عنه أكثر من مرة ، وبينهما قرن كامل كما لا يخفى .

وقد اشتمل الكتاب على ٣٥ باباً من أبواب البلاغة عدا المقدمة ، فبحث في : صفة البلاغة ، وفضل الفصاحة ، وبلاغة الخطباء ، والوفود والأسارى ، وبلاغة البلغاء اللسن ، ومكاتبات ذوي الألباء ، وبلاغة الحكماء ، والخلائف الأموية وخلفاء بني هاشم ، وبلاغة المعزين والمهنئين والمحتضرين والعلماء والمجانين والمتظرفات والقيان والأ كابر والعجم والأعراب والعلماء الخ الخ . وبالجملة فلم يترك باباً إلا طرقه .

وإنما نكتفي هنا بأن نورد مقدمة الكتاب كنموذج لأسلوب المؤلف ، الذي يمثل أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع . وبين أسلوبه في هذا الكتاب وكتاب الوشاء تشابه كبير ، ولكن هذا الكتاب أغزر مادة وأنفس قيمة .

قال : (بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه أستعين . أطال الله في ظل أفياء السلامة بقاءك ، وحجب عن غير نوائب الدهر نماءك ، وجعلك لمستحق شبوب النعمة ولآمل الأفضال منك مؤثلا ، ومتعك بوفاء عهود أوداءك ، وبلغك الغاية من تأميل ذوي المروءة من أولئك . قرأت متعك الله بالسلامة ، وحباك بالزلفة والكرامة ، ما كنت تشتكيه إلينا في كتابك من قلة الثقة في أصحابك ، وسآمتك من معاناة تلون الصديق ، وسرعة ملل الرفيق ، وتقلب دالة الحميم ، وشراسة خلق النديم . وسألت أن أختار لك نوعا متأدبا كريما تستعين به على طوارئ همومك ، وتثق به متكاشف همومك ، وتفرغ إليه في سهرك ، وتدعو إليه عند ضجرك ، وتعتمد عليه في أمورك ، وتستعده لسرورك ؛ فرأيت استفراغ المجهود في ذلك عوزاً ، ووجدان من ترتضى خلائقه لمنادمتك عسرا . وأحببت أن أحبوك بنديم يروقك منظره ، ويسرك مخبره ، وتطيب مشاهدته وتكثر محادثته ، إذا دعوته أسرع ، وإذا حدثك أمتع ، وإذا سألته أجاب ، وإذا تكلم أصاب ، وإذا استنطقته نطق ، لا يرهقك عسراً ، ولا يحملك إصراً ، يلقي عنك مؤونة الحشمة ، ويأمن على المال والحرمة ، أستدعي به منك دوام الإخاء ، وأرجو به عليك جميل الثناء ؛ فصنعت لك كتابا في البلاغة والإيجاز البارع ، ضمنته موجزات الخطب ، ومنتخب بلاغات العرب ، مما نطق من مليح كلامها ومختصر ألفاظها ، وموجز خطبها ، وبراعة أدبها ، ونادر حفظ أدبائها ، ومسرع جوابها ومعجب بدائهها ، إلى بلاغة البلغاء ، وبراعة الفصحاء ، وجواب الأدباء ، وإيجاز الخطباء ، ومحاورة الخلفاء ، وتهادي الظرفاء ، ومكاتبة الأمراء ، ونوادر الشعراء ، وحصافة ذوي الألباب ، وثقافة أذهان الكتاب ، ورصانة عقول النساء ، وتكامل أدب الإماء . ونظمته بما انتظم به من الحكم المحفوظة عن حكماء العجم ، ووصايا المحتضرين ، وحكم المجانين . وقدمت ذكر بلاغة العرب على غيرها من الناس ، لتقدمها على سائر الأجناس ، ولأن الله تعالى ذكره قد شرفها برسوله ، وفضلها بتنزيله ، وخصها بالخطاب المعجز ، واللفظ الموجز ، والسؤال الشافي ، والجواب الكافي ؛ فهم أمراء الكلام ، ومعادن العلوم والأحكام ؛ إليهم ترد البلاغة ، وعنهم تؤخذ الفصاحة ؛ فالناس بلغتهم مقتدون ولآثارهم متبعون . وترجمته بكتاب الفاضل لفضله على كل كتاب ، وأرسلت به إليك

(١) لدى كاتب هذا المقال نسخة من الجزء الأول من هذا المخطوط النفيس . ويتألف هذا الكتاب من جزءين ، والجزء الثاني منه مفقود . ويقول البرفسور بركلمان في كتاب له في سنة ١٩٣٨ إن الكتابين (الفاضل والنوادر) فريدان لا وجود لنسخة ثانية منهما على ما يعلم .

(٢) ترجمه ابن خلكان ص ٩٤٢ — وترجمة الألباء في طبقات الأدباء ص ٢٠٧ . كما ترجمه ابن النديم ، انظر ص ١٠٢ وذكر كتاب النوادر من جملة مؤلفاته .

من وحي دجلة :

ليلة مقمرة

هدأت سورة الضجيج من الحس   هوى في غيابة الأحلام
غير نبح الكلاب ذود حفاظ   وعواء يشق صدر الظلام
وحفيف الأشجار يهمس في النفس   غناه رقة وانسجام
هل ترى الريح ساقها عبث الخا   ئف تسرى كخشية الأوهام
وعلى النهر للشعاع انكسار   وبمرآته صدوع انثلام
قهقهت موجة تداعب سدا   ساخراً من تعاقب الأعوام
واسوداد الشاطئ بكحله الليـ   ـل وقد سال دمعه التهامى
مد أهدابه من الشجر الما   ئل ونخل كمارد في الظلام
وسرت موجة تقول لأخرى   كم مررنا بشامخ وركام
كم جذوع هوت هلاكا إلى جنـ   ـب فسيل زها بحسن قوام
وعلى الأفق نثرة من نجوم   حجب البدر بعضها بلثام
أين سلمى خلت دياري منها   أبعدوها بأروع ملء الظلام
في سكون الدجى وتحت سهام النـ   ـور [illegible]
شهد الدهر حفلة زينتها   رقصة من مجالس الأحلام
وحفيف الأوراق في الأفق زارت   شاعراً قاطنا جحيم غرام
عاش في هامش الحياة غريبا   في قصور شيدت من الآلام
قوته لدعة التشاكي وفي كأ   س لذاذاته لهيب هيام
أترى الله حين وزع خير الـ   أرض لم يقض لي سوى إيلامي

بغداد   ضياء الدخيلي

لامحتنا بمليك ، لتجعله بدلا من الجليس ، وخلفاً من الأنيس .
وقد صدرت ما ضمنته لك من ذلك كلاما جزلا في صفة ألسنة البلاغة ، وفضل الفصاحة والبراعة . فقف على ما فيه من فضله وتثبت في معرفته ومقدار نبله ، لتعلم إذا أنعمت الاختيار أني قد أحسنت لك الاختيار) . انتهى .

وسننشر في فرصة أخرى بعض أبواب من هذا الكتاب النفيس . وأنا لنرجو أن نوفق لطبعه وتعميمه في يوم قريب .

بيت المقدس   أحمد سامح الخالدي

أغنيــــة

[تعال يا حبيبي فهذه ليلتنا فهيا نغني]

لَيْلَةٌ مَرَّتْ كَأَحْلَامِ الوَلِيدِ
نَشَرَ اللَّيْلُ بِهَا طَيْفَ الصَّبَاحْ
أَبْلَجَ الغُرَّةِ كَالحُلْمِ السَّعِيدِ
يَتَهَادَى فَوْقَ أَجْفَانِ المِلَاحْ
طَافَتِ الفَرْحَةُ فِيهَا بِالنَّشِيدِ
تَرْقُصُ الأَلْحَانُ فِي دَلٍّ مُبَاحْ
يا حبيبي هذه ليلة عيدي
أنا فيها طائرٌ طلقُ الجناحْ

• • •

الصِّبَا وَالحُبُّ وَالحُسْنُ مَعَنَا
وَالسَّنَا اللَّمَّاحُ مَشْبُوبُ اللَّهِيبْ
وَفُتُونُ اللَّيْلِ تَشْوِى حَوْلَنَا
[illegible] بِالقَدِّ الرَّطِيبْ
وَسُكُونٌ بَيْنَ أَطْيَافِ المُنَى
ذَابَ فِي أَكْوَابِهَا نُورٌ وَرَاحْ
يا حبيبي ليلتي حُلْمُ المنى
أنا فيها طائرٌ طلقُ الجناحْ

• • •

آهِ قَدْ أَذَّنَ صَوْتُ النَّشِيدِ
وَأَتَى الفَجْــرُ بِأَفْرَاحِ الضِّيَاءْ
يَسْكُبُ النُّورَ بِجَفْنِ الأَغْيَدِ
وَيَنْفُضُ اللَّيْلَ عَنْ سِتْرِ السَّمَاءْ
لَيْلَتِي لَا تَنْقَضِي بَلْ فَاخْلُدِي !!
فَأَنَا مَا زِلْتُ مَخْضُوبَ الجِرَاحْ
يا حبيبي ليلتي ملك يدي
أنا فيها طائرٌ ، طلقُ الجناحْ

محمد البدهي

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر